التداولية عند علماء العربية دراسة تطبيقية في النحو والدلالة

الأستاذ الدكتور محسن حسين علي الخفاجي

جامعة بابل /كلية التربية للعلوم الإنسانية

Muhsenhussian @yahoo.com

ملخص البحث

التداولية تتجاذبها أطراف شتى وتخصصات عدة، منها التداولية السياسية، والتداولية الاجتماعية، والتداولية الاقتصادية، والتداولية اللغوية، وبما يمليه عليّ تخصصي في الدراسات اللغوية فقد كان البحث في هذا الجانب دون الجوانب الأخرى التي تتفرع عن التداولية، والتداولية تخصص لسانيّ حديث كان لمؤسسيه الغربيين باع طويل فيه، وأردت في هذا البحث أن أكشف عن جهود علماء العربية في ميدان التداولية تطبيقًا، دون معرفتها من قبلهم اصطلاحًا، فوجدت علماءنا قد ذكروا ما ركزت عليه التداولية اللغوية من جوانب تخص السياق والاستعمال، وما للخلفية الثقافية التي يمتلكها كل من المتكلم والمخاطب ليتحقق فهم ما يدلي به المتكلم من أقوال أو أفكار يستوعبها المخاطب، ثم يرد على المتكلم، فتتحصل عندئذ أفعال كلامية، وما لأثر الثقافة والموروث الاجتماعي في تحليل ما يقوله المتكلم أو ما يقع من نص نصب عيني المخاطب وجدت علماءنا في ميدان الدرس النحوي والدلالي قد أدلوا بدلوهم في إشارات واضحة وعبارات تدل على أنهم كانوا على وعي تام لمفهوم التداولية التي يمثل طرفيها المتكلم والمخاطب، وقد أشار علماءنا إلى دور الاستعمال وكثرته في اختزال بعض أجزاء التراكيب مما لم يكن له الأثر في فهم المخاطب للتراكيب التي حذف جزء منها، ذلك أن كلاً من المتكلم والمخاطب على دراية لهذا المحذوف نتيجة كثرة استعمالهم لهذه التراكيب، وقد عوّل علماؤنا على السياق كثيرًا في فهم دلالات المفردات التي تحمل أكثر من معنى، كما أنهم عنوا ببيان ظروف النص لما له من أثر في فهم النص وبيان مضمونه، جاء هذا البحث ليكشف عن كل هذه الجهود التي قام بها علماء العربية، والتي اصطلح عليها في الدرس اللسانيّ الحديث باسم التداولية .

الكلمات المفتاحية: التداولية، الاستعمال، السياق، الأفعال الكلامية

Abstract

After this tour in the linguistic lesson : (Pragmatics) and proving the effort of the Arabic scientists in it syntactically and semantically ,so I can write the following results:

1-Theroughout the research shows that the Arabic scientists know the deep and surface meaning of the pragmatics this throughout it stands on much of the texts have phrases or vocables refer to they care with the pragmatics process which occur between the speaker and the addressee ,the vocables are :the intended meaning ,utilitarianism,the addressee ,the speaker ,the people use ,deliberated , the contemporary ,the role ,the connection of their talking ,substitution the addressee into the speaker position in knowing the prediction .

2-The pragmatics is found in the two roles of speech are the speaker and the addressee in using verbal in it's special field means :the use which is the sons of linguistic used it like the verbal is not unless in the perpetrations ,if it is substituting in another verbal which is unknown its use in the field of perpetrations the pragmatics process will not be found.

3-The speaker and the addressee share in knowing the circumstance of the text and its social and behaviourism externals so the pragmatic process is found in analyzing the oration which is analyzed by the addressee when the speaker said it

4-The more use has a clear role in concluding something from the text or the structure ,and this conclusion has no effect on listener's understanding to the text's or the structure's content

, this means that both the speaker and the listener know this conclusion , and impossible to the speaker to omit something from his speech unless the listener know and hear it .
5-The context has a clear role in showing the intended meaning if the word has more than one meaning , the word which has more than one meanings it is the one which conveys all its forces in showing the meaning of the expressions and the meaning of a word as a single word give us general meaning unless it does not put in the context .
6-The speaker and the listener suppose to know the structures or utterances meaning , if the listener does not know the meaning of the structures or the utterances the rhetorical message will be not true which the speaker aims to give it to the listener .
key words : Pragmatics. The use. The context . verbs

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النور الساطع والحق المبين محمد واله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغرّ الميامين.

أمّا بعد : فإن التداولية ذات أطراف شتى وتخصصات عدّة، منها التداولية اللغوية، والتداولية السياسية، والتداولية الاقتصادية، والتداولية الاجتماعية، وهذا البحث يتناول جانبًا من جوانب التداولية المتعددة، ألا وهو الجانب اللغوي الذي يمثل تخصص الباحث، وبما أن التداولية اللغوية تخصص لساني حديث كان لمؤسسيه الغربيين باع طويل فيه، فقد حاولت في هذا البحث أن أكشف عن جهود علماء العربية القدماء فيه من باب تأصيل الألسنية عند علمائنا، فوجدتهم قد ذكروا ما ركّزت عليه التداولية اللغوية من جوانب تخصّ السياق والاستعمال، وما للخلفية الثقافية التي يمتلكها كلّ من المتكلم والمتلقي لفهم ما يقوله المتكلم وما يردّ عليه المخاطَب من أفعالٍ كلامية تمثل استيعاب المخاطَب ما يدلي به المتكلم، وما لأثر الثقافة والموروث الاجتماعيّ في تحليل الخطاب، وجدت علماءنا قد استلهموا ذلك كله في فهم النصوص وتحليلها، وقد وجدتهم في الدرس النحويّ والدرس الدلاليّ قد ادلوا بدلوهم في إشارات واضحةٍ وتطبيقات تدلّ على أنهم كانوا على وعيّ تامّ لمفهوم التداولية التي يمثل طرفيها المتكلم والمخاطبَ، فكانت نتاجاتهم وتطبيقاتهم للتداولية ضمن جهودهم النحوية والدلالية باعثًا لكتابة هذا البحث .

وبما جمعت من مادة استطعت أن أقسمها على ما يأتي :

ـ تمهيد : تناولت فيه التداولية لغةً واصطلاحًا، وإنما ذكرت التداولية لغة لأبيّن أن لها أصلاً عند علماء العربية، وذكرتها اصطلاحًا لأبيّن أنها درس لسانيّ حديث.

ـ المبحث الأول : ذكرت فيه قضيتين :

1ـ ألفاظ تدل على التداولية عند علماء العربية.

2ـ روافد التداولية تخصصًا لسانيًا حديثًا .

ـ المبحث الثاني : الاستعمال وكثرته : تناولت فيه الاستعمال وكثرته، وأثرهما في حذف بعض اجزاء النصّ من دون أن يؤثر في فهم المتلقي مع إدراكه لما حذف .

ـ المبحث الثالث : السياق : تناولت فيه معنى المفردة داخل سياق ما، واختلاف هذا المعنى من سياق لآخر.

ـ المبحث الرابع : الأفعال الكلامية : تناولت فيه إنجاز المتكلم قولًا له أثره في المتلقي فهمًا واستيعابًا، ثم الرّد على المتكلم بما يتوجب من كلام.

ـ المبحث الخامس : الخلفية الثقافية وأثرها في تحليل الخطاب : تناولت فيه أثر الخلفية الثقافية التي يختزنها المتلقي في ذاكرته في تحليل الخطاب أو النصّ ، وكذلك ما يختزنه المتكلم من ثروة معرفية تكون منطلقًا لما يقول .

وقد سبق هذه المباحث مقدمة بيّنت فيها سبب اختيار هذا الموضوع بحثًا، وأنهيته بخاتمة تمثل النتائج التي توصلت إليها، أمّا أهم مصادر البحث، فكان في مقدمتها كتاب سيبويه، ومعاني القرآن للفراء، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وتفسير الطبريّ وغيره من كتب التراث، ومن الكتب الحديثة التي تناولت التداولية بالدرس والبيان : التداولية عند العلماء العرب ـ دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللسانيّ العربيّ للدكتور مسعود صحراويّ ، والأفق التداوليّ ـ نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية للدكتور إدريس مقبول وغيرها، ومن الأطاريح الجامعية : التداولية في الفكر النقديّ (أطروحة دكتوراه) ل لكاظم جاسم منصور العزاويّ، وغيرها من المصادر والمراجع والأطاريح والبحوث

وأسأل الله تعالى أن يوفقني لخدمة العربية وبيان جهود علمائها .

التمهيد/التداولية لغةً واصطلاحًا

سأبيّن هنا معنى التداولية في اللغة من باب تأصيلها عند علماء العربية، ثم أنتقل إلى معناها الاصطلاحيّ لأبيّن أنها درس لسانيّ حديث .

التداولية لغًة : قال ابن فارس : " الدال والواو واللام أصلان : أحدُهما يدلُّ على تحول شيءٍ من مكانٍ إلى مكانٍ... فقال أهلُ اللغة : اندال القومُ ، إذا تحوّلوا من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن هذا الباب تداول القومُ الشيءَ بينهم : إذا صار من بعضهم إلى بعضٍ ... [و] أمرٌ يتداولونه، فيتحوّل من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا "[1].

وقال ابن منظور : " تداولنا الأمرَ: أخذناه بالدُّوَل، وقالوا : دَوَالَيْكَ أي مداولةً على الأمر... وتداولَتْهُ الأيدي : أخذته هذه مرّةً وهذه مرّةً... وقولهم دوالَيْكَ أي تداولًا بعد تداول ... ويقال : تداولْنا العملَ والأمرَ بيننا بمعنى تعاوَرْناه، فعمِل هذا مرةً وهذا مرةً " [2] .

وقال الفيروزأبادي : " دَال يدولُ دَوْلًا ودالةً : صار شُهْرَةً " [3] .

يتضح من أقوال أهل اللغة أن التداول هو أن يكون الشيء بيد أحدهم حتى ينتقل إلى الآخر، والأمر المتداول إذا أخذه أحدٌ عن أحدٍ حتى يكتسب الشهرة فيشيع بين الناس، فيصير أمرًا معروفًا عندهم يتعاورون عليه .

التداولية في الاصطلاح : عُرِّفت التداولية تعريفات عدة، منها :

ما يراه جورج يول أنها : " دراسة المعنى كما يوصله المتكلم أو الكاتب، ويفسره المستمع أو القارئ ، لذا فأنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة ... [و] تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين، وكيفية تأثير السياق في ما يقال ... [و] كيفية إدراك قدر كبير مما لم يتمّ قوله على أنه جزء مما يتمّ إيصاله" [4].

ويرى موريس ـ وهو ما يفهمه الدكتور رخرور إمحمد من تعريفه لهاـ أنها : " دراسة علاقات العلامات بمستعمليها ، أي: دراسة اللغة أثناء ممارستها إحدى وظائفها الإنجازية والحوارية والتواصلية "[5].

(1) معجم مقاييس اللغة : 299، مادة : دول .
(2) لسان العرب : 1342/2مادة : دول.
(3) القاموس المحيط : 2/ 235مادة : دول .
(4) التداولية : 19، والتداولية في الفكر النقديّ (أطروحة دكتوراه): 15. الصواب : كلمات هذه الألفاظ أو عباراتها .
(5) التداولية ومنزلتها في النقد الحديث والمعاصر .د. رخرور إمحمد ــ الجزائر (شبكة المعلومات) .

ويرى أوستن أن التداولية : " تهتم بالجانب الاستعمالي، أي استعمال اللغة "[1].

ويرى الدكتور رخرور إمحمد أيضًا أن التداولية : " تخصص لساني يحدد موضوعه في المجال الاستعمالي، أو الإنجازي لما نتكلم به، ويدرس كيفية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية أثناء حواراتهم ، وفي صب أحاديثهم، وفي خضم خطاباتهم، كما يعتني هذا التخصص بكيفية تأويل مستعملي اللغة لتلك الخطابات وتلك الأحاديث" [2]ويرى جورج يول أيضًا أن التداولية هي دراسة: " المعنى الذي يقصده المتكلم "[3].

ويرى الدكتور إدريس مقبول أن التداولية : " دراسة العلاقة بين العلامات ومؤوليها أو مستعمليها، وبهذا فهي تفيد الممارسة والتفاعل " [4]، وترى راضية خفيف بو بكري أن التداولية هي : " النفعية، الذرائعية، الاتصالية " [5]وإنما سميت بهذه التسميات المتعددة لتداخل حقولها مع حقول أخرى .

ويرى الدكتور رخرور امحمد أيضًا أن التداولية تخصص " يهتم أيضًا بمنشئ الكلام (الخطيب، المتكلم)، وكذا السياق "[6]، ويرى الأستاذ عبد الرحمن طه أن التداولية تعتمد على معطيات منها : " معتقدات المتكلم، ومقاصده، وشخصيته، وتكوينه الثقافيّ، ومن يشارك في الحدث اللغويّ، والوقائع الخارجية ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة، فضلًا عن المعرفة المشتركة بين المتخاطبين ، وأثر النص الكلامي فيها" [7] يظهر لنا من التعريفات التي ذكرت بشأن التداولية أنها تركز على جوانب، من أهمها :

1ـ الاستعمال : ويراد به استعمال المتكلم للمفردات التي يشاركه في فهمها المخاطَب، وكذلك إدراك المخاطب لما يحذفه المتكلم من كلام أو ألفاظ تفهم من استعمال كلّ من المتكلم والمخاطب لها، وإنما حذفت بعض الألفاظ لكثرة استعمال المتكلمين أو الناطقين بها، فعاد حذفها مفهومًا من قبل الجميع، ولا يشكل حذفها إبهامًا لا يفهمه المخاطب، وعليه فالتداولية تهتم باللغة من جانبها الاستعماليّ[8].

2ـ السياق : ويراد به أن الكلمة أو التركيب تكون له خصوصية معنوية داخل السياق، تختلف عن دلالة اللفظة أو التركيب خارج السياق، وأن دلالة الألفاظ أوالتراكيب تختلف من سياق لآخر.

3ـ الأفعال الكلامية : ويقصد بها ما ينجزه المتكلم من كلام له أثره في المتلقي، وقد يترتب عل الفعل الكلاميّ ردّ فعل من قبل المخاطب يتمثل في كثير من الأحيان بفعل كلاميّ آخر؛ لذا"فهي تفيد الممارسة والتفاعل"[9]، وأن من وظائف اللغة الحوار والتواصل [10].

4ـ الخلفية الثقافية للمتلقي وأثرها في تحليل الخطاب : ويراد بها ما للمخاطب من مكوّن ثقافيّ يستطيع من خلاله تحليل الخطاب .فهي "رصيد من المعارف المنظمة المخزونة في الذاكرة" [11].

(1) التداولية وتحليل الخطاب الأدبي ـ مقاربة نظرية : راضية خفيف بوبكري ـ الجزائر (شبكة المعلومات).
(2) التداولية ومنزلتها في النقد الحديث والمعاصر (شبكة المعلومات) . الصواب : في أثناء .
(3) معرفة اللغة: 135.
(4) التداولية في الفكر النقديّ: 19، وينظر الأفق التداوليّ ـ نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية : 8 .
(5) التداولية وتحليل الخطاب الأدبيّ ـ مقاربة نظرية (شبكة المعلومات).
(6) التداولية ومنزلتها في الفكر النقدي الحديث (شبكة المعلومات).
(7) التداولية في الفكر النقدي : 19، وينظر البحث اللسانيّ والسيميائيّ 301ـ 303.
(8) ينظر : التداولية وتحليل الخطاب الأدبيّ (شبكة المعلومات).
(9) التداولية في الفكر النقدي :19، وينظر الأفق التداوليّ ـ نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية : 8.
(10) ينظر : التداولية ومنزلتها في النقد الحديث والمعاصر (شبكة المعلومات).
(11) التداولية في الفكر النقديّ : 74، وينظر : استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: 57.

المبحث الأول

تناولت في هذا المبحث قضيتين :الأولى منهما ورود ألفاظ تدل على التداولية عند علماء العربية القدماء، والمتأخرين منهم، والقضية الثانية : روافد التداولية تخصصًا لسانيًا حديثًا .

أولًا : ألفاظ تدل على التداولية عند علماء العربية قدماء ومتأخرين : وردت عند علماء العربية القدماء والمتأخرين ألفاظ تدلّ على التداولية، منها :

ـ القصدية : قال الزجاجيّ في حديثه عن لام الابتداء: " لشدة توكيدها وتحقيقها ما تدخل عليه يقدِّر بعض الناس قبلها قسَمًا، فيقول : هي لام القسم، كأن تقدير قوله : لَزيدٌ قائمٌ : واللهِ لَزيدٌ قائمٌ، فأُضمِر القسم ودلّت عليه اللام، وغير مُنكَر أن يكون مثلُ هذا قسمًا؛ لأن هذه اللام مفتوحة كما أن لام القسم مفتوحة؛ ولأنها تدخل على الجمل كما تدخل لام القسم؛ ولأنها مؤكِّدة محققة كتحقيق لام القسم، ولكنها ربما كانت لام القسم، وربما كانت لام الابتداء ، واللفظ بهما سواءٌ، ولكن بالمعنى يستدلّ على القصد " [1] وكذلك في قول الزركشيّ (ت 794هـ) في حديثة عن معنى (ثُمَّ) : " وقد تأتي لترتيب الأخبار لا لترتيب المخبَر عنه، كقوله تعالى :﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ ﴾... قال ابن برّي :قد تجيء (ثُمَّ) كثيرًا لتفاوت ما بين رتبتين في قصد المتكلم "[2] وهناك مواضع أخرى للقصدية وردت عند علماء العربية .[3]

ـ النفعية : ذكر الجاحظ (ت 255هـ) أن بشر بن المعتمر (ت210هـ) يقول :

" المعنى ليس يَشْرُف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال "[4]

ويقول الجاحظ أيضًا في باب البيان " المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم ... مستورة خفية، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها، وأستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا ... وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع "[5] وقد عبر علماء العربية عن (النفعية) أحيانًا بالفائدة التي تتحصل جرّاء إنجاز الكلام [6].

ـ المخاطَب : وردت لفظة (المخاطَب) في نصوص كثيرة عند علماء العربية، من ذلك قول سيبويه في وجوب الإخبار عن المعرفة، ولا يجوز أن تخبر عن النكرة قال : " فاعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة فالذي تشغل به كان المعرفةُ ... ولا يستقيم أن تخبر المخاطَب عن المنكور"[7]، وقال المبرد في حديثه عن علة رفع الفاعل : " وإنما كان الفاعل رفعًا لأنه هو والفعل جملة يحسن عليها السكوت ، وتجب بها الفائدة للمخاطَب"[8].

---

(1) اللامات : 70.
(2) البرهان في علوم القرآن :293/4. والآية من سورة يونس : 46.
(3) ينظر على سبيل المثال : بصائر ذوي التمييز: 68/1، وهمع الهوامع : 347/1.
(4) البيان والتبيين : 136/1، وعلم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربيّ : 227.
(5) البيان والتبيين :75/1.
(6) ينظر المقتضب : 8/1، 88/4.
(7) الكتاب : 47/1– 48.
(8) المقتضب : 8/1.

وهناك مواضع أخرى لذكر المخاطَب عند علماء العربية [1]

ــ متداولة : من الألفاظ الدالة على التداولية، وقد استعملها علماء العربية لفظة : (متداولة) قال الزمخشريّ بصدد استعمال كلمة (عُفِي) بدل كلمة (ترك) في أثناء حديثة على قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ [2]. قال : " والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس، فلا يُعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها "[3].

وقد يعبّر أحيانًا عن المتداول بالمشهور، قال أبو حيان : " فقد يتعادل الوجهان أعني : كون عفا اللازم لشهرته في الجنايات ، وعفا المتعدي لمعنى محا لتعلقه بمرفوعه تعلقًا حقيقيًا"[4].

ـ الاستعمال : ورد في نص الزمخشري السابق لفظة : (استعمال الناس)، وكذلك وردت لفظة (كثرة الاستعمال) في نصوص كثيرة عند علماء العربية ، منها على سبيل المثال قول أبي البركات الأنباريّ في حديثه عن حذف فعل القسم : " إن قال قائلٌ :لِمَ حُذِف فعل القسم ؟ قيل : إنما حُذِف فعل القسم لكثرة الاستعمال "[5] وقال ابن يعيش في اختيار العرب اخفّ اللغات في (عَمْرُك و عُمْرُك) في القسم، إذ اختاروا (عَمْرُك) بفتح العين ؛ لأنه أخفّ في الاستعمال ؛ ولكثرة القسم عندهم قال :" يقال: ((أطال اللهُ عَمْرَك وعُمْرَك)) وهما، وإن كانا مصدرين بمعنًى، إلّا أنه استعمل في القسم منهما المفتوح دون المضموم كأنه لكثرة القسم اختاروا له أخفّ اللغات " [6]

ـ الدَّوْر: لفظة (الدَّوْر) من الكلمات الدالة على التداولية وقد ذكرها علماء العربية. من ذلك قول ابن يعيش في حديثه عن القَسَم : " لما كان القَسَم مما يكثر استعماله ، ويتكرر دَوْرُه بالغوا في تخفيفه من غير جهة واحدة "[7] وقال في موضع آخر وهو يتحدث عن حذف حرف القسم ثم حذف الفعل :" يحذفون الفعل والحرف جميعًا، والقياس يقتضي حذف الحرف أوّلًا ، فأفضى الفعل إلى الاسم فنصبه، ثم حُذِف الفعل توسعًا، لكثرة دَوْر الأقسام "[8].

ـ المحدَّث : من الألفاظ الدالة على التداولية أيضًا لفظة (المحدَّث) ذكر ذلك سيبويه في (باب ما يكون فيه هو وأنت وأنا ونحن وأخواتهنَّ فصلًا) قال : " اعلم أنهنّ لا يكنّ فصلًا إلّا في الفعل، ولا يكنَّ كذلك إلّا في كلّ فعل الاسم بعده بمنزلته في حال الابتداء، واحتياجه إلى ما بعده كاحتياجه إليه في الابتداء، فجاز هذا في هذه الأفعال التي الأسماء بعدها بمنزلتها في الابتداء، إعلامًا بأنه قد فصل الاسم، وأنه فيما ينتظر المحدَّث ويتوقعه منه، مما لابدّ له من أن يذكره للمحدَّث " [9] .

وقال سيبويه أيضًا في صيرورة الإضمار معرفةَ :" وإنما صار الإضمار معرفةً لأنك إنما تُضمِر اسمًا بعدما تعلم أنّ من يُحدَّث قد عرف من تعني وما تعني، وأنك تريد شيئًا يعلمه "[10].

(1) ينظر الأصول في النحو : 67/1، وشرح المفصل : 1/ 224.
(2) سورة البقرة : 178.
(3) الكشاف : 1/ 220.
(4) البحر : 149/2.
(5) أسرار العربية : 148.
(6) شرح المفصل :245/5. وينظر منه أيضًا : 5/ 254، 255، 260.
(7) شرح المفصل : 249/5.
(8) شرح المفصل : 260/5.
(9) الكتاب : 389/2.
(10) الكتاب : 6/2. وينظر الأصول في النحو : 1/ 58.

ـ الخِطاب : وردت لفظة (الخطاب) عند علماء العربية أيضًا قال أبو بكر بن الأنباري : " لا يعرف معنى الخِطاب منه إلّا باستيفائه واستكمال جميع حروفه "[1](1) وقال العكبريّ في قراءة الجمهور لقوله تعالى :﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾(2).

قال : " (وترى الناس) الجمهور على الخطاب وتسمية الفاعل ، ويقرأ بضم التاء "(3) .

ــ اتصال مخاطباتهم (الاتصالية) : وقد وردت هذه اللفظة عند علماء العربية قال أبو بكر بن الأنباريّ بصدد ظنّ أهل البدع بالعرب: " ويظنّ أهل البدع والزيغ والازدراء بالعرب أن ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم "(4) وقال ابن يعيش في حديثه عن اللام الواقعة في جواب القسم : " قال الله تعالى : (وتالله لأكيدنّ اصنامكم)، وقال : (لنسفعًا بالناصية) .فاللام للتأكيد واتصال القسم إلى المقسم عليه " (5).

ـ السامع : وردت لفظة (السامع) عند علماء العربية ومنه قول المبرد عن اسم كان وخبرها، قال " اعلم أنه إذا اجتمع في هذا الباب معرفة ونكرة فالذي يُجعل اسم كان المعرفة ؛ لأن المعنى على ذلك؛ لأنه بمنزلة الابتداء والخبر ... ألا ترى أنك لو قلت : ((كان رجلٌ قائمًا)) و ((كان إنسانٌ ظريفًا)) لم تُفِد بهذا معنى؛ لأن هذا مما يعلم الناس أنه قد كان ، وأنه مما يكون وإنما وضع الخبر للفائدة ، فإذا قلت : ((كان عبد الله)) فقد ألقيت إلى السامع اسمًا يعرفه ، فهو يتوقع ما تخبره عنه "(6) وقال ابن يعيش بصدد حديثه عن عدم وصف المعرفة بالجملة : " وإنما لم توصف المعرفة بالجملة لأن الجملة نكرة، فلا تقع صفةً للمعرفة لأنها حديث ألا ترى أنها تقع خبرًا ، نحو : زيدٌ أبوه قائمٌ ، ومحمدٌ قام أخوه وإنما تُحدِّث بما لا يُعرف، فتفيد السامع ما لم يكن عنده "(7).

ـ اشتراك المخاطَب مع المتكلم في معرفة المعنى أو إنزاله منزلة المتكلم في معرفة الخبر : ومن الألفاظ الدالة على التداولية عند علماء العربية كون المعنى معروفًا لدى المتكلم والسامع قال الفرّاء في حديثه عن حذف جواب الشرط في قوله تعالى:﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ (8) قال : " فافعل مضمرة ، بذلك جاء التفسير، وذلك معناه . وإنما تفعله العرب في كلّ موضع يُعرف فيه معنى الجواب ألا ترى أنك تقول للرجل : إنْ استطعت أن تتصدّق ، إنْ رأيت أن تقوم معنا ، بترك الجواب لمعرفتك بمعرفته به"(9) وقال ابن يعيش : " اعلم أن أصل المبتدإ أن يكون معرفةً وأصل الخبر أن يكون نكرة، وذلك لأن الغرض في الإخبارات إفادة المخاطَب ما ليس عنده ، وتنزيله منزلتك في علم ذلك الخبر "(10).

---

(1) الأضداد :13.
(2) سورة الحجّ :2.
(3) التبيان في إعراب القرآن : 139/2.
(4) الأضداد :13.
(5) شرح المفصل :140/5. والآية الأولى من سورة الأنبياء : 57، والآية الثانية من سورة العلق : 16.
(6) المقتضب :88/4.
(7) شرح المفصل :243/2.
(8) سورة الأنعام :35.
(9) معاني القرآن : 331/1. وينظر منه أيضًا : 1/ 113، 6/2–7.
(10) شرح المفصل : 224/1.

ثانيًا : روافد التداولية : تعددت مشارب التداولية، وتنوعت أصولها المعرفية؛ لذا أخذ مؤسسوها من كلّ مشرب بطرف حتى صارت التداولية تنتمي إلى أصول متعددة، ومن المعارف التي أخذت منها التداولية : الفلسفة البراغماتية، وفلسفة اللغة العادية ، وفلسفة غرايس، والسيمياء، والبلاغة الغربية، واللسانيات، وعلم الاجتماع، وعلم النفس المعرفيّ [1].

وسأتحدث عن بعض من هذه الروافد :

ـ الفلسفة البراغماتية : جاء بها بيرس عام 1870م وتقوم على أساس ما للفكرة من نتائج صحيحة، ولا قيمة للفكرة إلا بمقدار ما تقدمه من نتائج صحيحة ونافعة ، ويحكم على صحة الفكرة بصحة النتائج التي تترتب عليها، وقد نادى بيرس بـ" الأخذ بالنتائج العملية التي ندرك أن تفكيرنا قد يكون على علاقة بها، وعندئذ يكون إدراكنا لهذه النتائج هو كلّ مفهومنا عن هذا الموضوع " [2]. ونجد بيرس هنا يربط بين الفكرة ونتائجها، إذ لابدّ لأيّ فكرة من نتائج أو آثار تكون سببًا عنها ؛ لذا نجده يخلص إلى أن " معنى اللفظ أو العبارة هو الذي يوجه الإنسان ويرشده إلى نوع من السلوك أو الفعل "[3] وتجدر الإشارة هنا إلى أن التداولية تبنت من البراغماتية الجانب العمليّ المتمثل بالاستعمال اللغويّ [4].

ـ فلسفة اللغة العادية : يذهب لود فيغ فنغنشتاين 1889م ـ 1951م صاحب نظرية اللغة العادية إلى إيلاء الاستعمال اللغويّ أهمية قصوى في بيان المعنى، وعنده أن المعنى هو الاستعمال، وإذا كان المعنى واحدًا أو الفكرة واحدةً ، فأن التعبير عنها يكون بـ" حشد من الاستعمالات الأخرى للغة : كالأمر، والاستفهام، والشكر، واللعن، والتحية، والدعاء ... إلخ، وفي كلّ استعمال هناك مجموعة من القواعد المتفق على اتباعها " [5].

ولا شك أن القواعد المتفق عليها تشير إلى أنها متداولة بين جميع متحدثي اللغة، وتنوّع هذه القواعد الاستعمالية بتنوع الأسلوب الذي يتكلم به المتحدث أعني أن أسلوب الأمر له قواعده الخاصة به، وأسلوب الاستفهام له قواعده الاستعمالية الخاصة به، وكذلك الدعاء، والتحية لكلّ واحدٍ من هذه الأساليب أو الاستعمالات نواميس وقواعد خاصة بها، فلا يمكن للمتحدث أن يستعمل القواعد الخاصة بالتحية مثلًا في مقام الدعاء ، ولا الاستفهام في مقام الأمر، وهكذا .وشعار نظرية فتغنشتاين هو : " لا تسأل عن المعنى، ولكن اسأل عن الاستعمال " [6].

(1) الفلسفة البراجماتية ـ أصولها ومبادئها : 24.
(2) أعلام الفكر الفلسفي المعاصر: 99، والتداولية في الفكر النقدي ّ : 99.
(3) ينظر التداولية في الفكر النقديّ : 100.
(4) أعلام الفكر الفلسفيّ المعاصر : 79، وينظر التداولية في الفكر النقديّ : 105ــ 106.
(5) أعلام الفكر الفلسفيّ المعاصر: 79،والتداولية في الفكر النقديّ : 108.
(6) أعلام الفكر الفلسفيّ المعاصر: 79،والتداولية في الفكر النقديّ : 108.

وتصطبغ اللغة بصبغة تداولية على أساس ما يضفيه الاستعمال عليها من صبغة اجتماعية [1].

ـ فلسفة غرايس: يولي غرايس 1913م ـ 1988م هو الآخر الاستعمال أهمية إلا أنه فرّق بين نوعين من المعنى، وهما المعنى الحرفيّ، والمعنى الذي يقصده المتكلم، ففي قولنا : زيدٌ صائغٌ ماهرٌ، تعني هذه الجملة بمعناها الحرفيّ أنه يجيد هذه الصنعة إذا كانت الجملة صادقة على صعيد الواقع، لكنها في معناها الذي يقصده المتكلم: أنه مقصّر في دراسته، وذلك إذا كانت جوابًا لسؤال : هل زيدٌ طالبٌ مجتهدٌ ؟ فإذن تكون الجملة بمعناها الحرفيّ غير الجملة بمعناها الذي يقصده المتكلم، وتقوم نظرية غرايس على أساس تجاوز المعنى الحرفيّ للجملة إلى المعنى الآخر الذي هو مقصد المتكلم[2]، وفي ضوء نظرية غرايس التي ميزت بين المعنيين : الحرفيّ، ومقصد المتكلم ميز ستراوسن بين فريقين من الفلاسفة أحدهما سمّاه (أصحاب نظرية قصد الاتصال) الذي يضم غرايس وأوستن و فتغنشتاين المتأخر ووضع ستراوسن نفسه ضمن هذا الفريق ، ويقدم هذا الفريق نظريات الاستعمال في المعنى ومن ضمنها النظرية القصدية. وسمّى الفريق الآخر بـ(أصحاب علم الدلالة الصوريّ)، ويضم كلًا من تشومسكي وفريجة و فتغنشتاين المبكّر، وهذا الفريق ينظر إلى معنى الجملة على أنه متحصل من الأشكال الصورية المكوّنة لها [3]أي بمعنى أنه ينظر إلى المعنى الحرفيّ الذي ينشأ من الأشكال الصورية أو المفردات بمعناها الأساس، لا أنه ينظر في المعنى الإضافيّ الذي ينشأ عن هذه الأشكال ، أما أصحاب النظرية القصدية ، فإنهم ينظرون في المعنى الإضافيّ الذي ينشأ عن هذه التشكيلات المكونة للجملة، وبناءً على هذا ينشأ التفريق بين علم الدلالة وعلم الاستعمال [4] .

ـ السيمياء : والسيميائية ركيزة من ركائز التداولية، ذلك أن السيميائية هي علم العلامات أو علم الإشارات ، وقد تبنت التداولية مفهوم العلامة وعلاقتها بمستعمليها ؛ لذا عرِّفت التداولية بأنها " دراسة علاقة العلامات بمؤوليها " [5] ، والعلامة ينبغي أن يكون " معناها المتفق عليه معروفًا من قبل المرسَل إليه، أي أن استعمال العلامة كوسيلة من وسائل الاتصال يرتبط بتلقين مسبق للاصطلاح حول دلالتها" [6]والعلامة عند بيرس 1839م ـ 1914م ثلاثية المبنى وتتكون من[7]:

1ـ الصورة وتقابل عند سوسير الدال.

2ـ المفسّرة وتقابل عند سوسير المدلول .

3ـ الموضوع (الفكرة المركزية) وهو لا يقابل شيءً عند سوسير .

وعلى هذا الأساس تكون العلامة ثلاثية المبنى عند بيرس، وثنائية المبنى عند سوسير واسس موريس في عام 1946م نظرية عامة للعلامات تعتمد على اتجاهات ثلاثة[8] :

1ـ اتجاه دلاليّ : ينظر في علاقة العلامة بما تدلّ عليه .

2ـ اتجاه تركيبيّ : ينظر في انضواء العلامة ضمن علامات أخرى بطرائق تأليفية تركيبية، وما شأن هذه العلامة ضمن العلامات التي تركّبت معها .

3ـ اتجاه تداوليّ : ينظر في طريقة استعمال المتلقي لهذه العلامة .

---

(1) ينظر التداولية في الفكر النقديّ : 108.
(2) ينظر التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس (بحث) : 37، والتداولية في الفكر النقديّ : 109.
(3) ينظر النظرية القصدية في المعنى عند جرايس (بحث) : 31.
(4) ينظر التداولية في الفكر النقديّ : 113– 114.
(5) التداولية في الفكر النقديّ : 117.
(6) الجذور الفلسفية والنظرية اللسانية ، الإشارة : 50(بحث) والتداولية في الفكر النقديّ : 120. والصواب أي إن (بكسر همزة إنّبعد أي) .
(7) ينظر التداولية في الفكر النقديّ : 118.
(8) ينظر العلامة تحليل المفهوم وتأريخه : 56، والتداولية في الفكر النقديّ : 120 –121.

والاتجاه التداوليّ ضمن هذا المخطط هو " عبارة عن نظام من السلوك يستوجب اتخاذ موقف لدى المخاطَب، سواءٌ أكان هذا الموقف إيجابيًا أم سلبيًا إزاء حدث ما أو شيء ما أو مقام ما "[1]ويتضح من الاتجاهات الثلاثة التي ركّز عليها موريس أن التداولية تقوم على هذه الأجزاء من السيموطيقيا وهي : النحو والدلالة والتداولية [2] .

ـ البلاغة الغربية : والبلاغة الغربية هي الأخرى نجد فيها بذور التداولية من خلال عنايتها بالمتخاطِبينَ ، ومقامات التلفظ زيادةً على ذلك نجد مفاهيم التداولية ضاربةً في البلاغة الغربية كالأفعال الكلامية والاقتضاء ونحوها . والبلاغة الغربية عنيت منذ القدم بدراسة اللغة الحجاجية وتأثير الخطاب في السامعين، فالبلاغة الغربية إذن اهتمت بجانبين غير منفصلين هما الجانب اللغوي والجانب الاجتماعي " لأن الطابع اللغويّ للكائن البشريّ يرتبط في النهاية، وبقوة بخاصيته الاجتماعية"[3].

يتضح لنا هنا أن الجانب اللغويّ مرتبط بوظيفته الاجتماعية التأثيرية في المتلقي، ودراسة هذا التأثير هو من صميم الفكر التداوليّ تحقيقًا للتواصل بين أفراد المجتمع .

المبحث الثاني/الاستعمال وكثرته

لا يتمّ التواصل والتداول بين أبناء اللغة الواحدة مالم يكونوا متفقين ومصطلحين على دلالات الألفاظ أو التراكيب التي يستعملونها في مخاطباتهم وتعاملاتهم اليومية سواءٌ أكان هذا الاستعمال على مستوى اللغة الأدبية أم على مستوى التعامل السوقي اليومي الذي يكون مرام المتحدّث فيه التفاهم مع المخاطَب فقط، لا إثارة عواطفه، أو إعجابه بجمال الأسلوب وبلاغته التي تصدر من المتكلم؛ إذ إن الأسلوب البليغ لا يشترط فيه صحة الكلام من الناحية الصناعية النحوية فحسب بل يطلب فيه التأثير أيضًا [4] ولو أعترض معترض على أن هناك ألفاظًا ذوات دلالات متضادة ، فكيف يعرف السامع ما يقصده المتكلم من معنى دون مضادّه ؟ يجيب على هذا الاعتراض أبو بكر بن الأنباريّ : بـ" أن كلام العرب يصحح بعضه بعضًا، ويرتبط أوّله بآخره، ولا يُعرف معنى الخطاب منه إلّا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين، لأنها تتقدمها ويأتي بعدها ما يدلّ على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، فلا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلّا معنًى واحدٌ "[5]، وقال في موضع آخر بعد ذكر جملة من الألفاظ المتضادة : " في ألفاظ كثيرة يطول إحصاؤها وتعديدها ، تُصحِبها العرب من الكلام ما يدلّ على المعنى المخصوص بها"[6]، يضرب لنا أبو بكر بن الأنباريّ أمثلةً من القرآن الكريم والشعر توضح المعنى الذي يقصده المتكلم من غير أن ينصرف ذهن السامع إلى معناه المضادّ، وذلك باستحضار ما تقدمه أو تأخر عنه من كلام، ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ :﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ ﴾[7] ، قال أبو بكر :" أراد : الذين يتيقّنون ذلك، فلم يذهب وهْمُ عاقل إلى أنّ الله عزّ وجلّ يمدح قومًا بالشكّ في لقائه.

(1) التداولية في الفكر النقديّ : 121، وينظر :التداولية منهج لسانيّ و استراتيجية لتحليل الخطاب (شبكة المعلومات) .
(2) ينظر نظرية اللغة الأدبية : 232، والتداولية في الفكر النقديّ: 121.
(3) الفلسفة والبلاغة : 19، وينظر التداولية في الفكر النقديّ : 122.
(4) ينظر مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة : 101.
(5) كتاب الأضداد : 13.
(6) كتاب الأضداد : 16.
(7) سورة البقرة :249.

وقال في موضع آخر حاكيًا عن فرعون في خطابه موسى (عليه السلام) : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾[1] وقال تعالى حاكيًا عن يونس (عليه السلام) :﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2] ، أراد : رجا ذلك وطمِع فيه، ولا يقول مسلمٌ إنّ يونس تيقّن أنّ الله لا يقدر عليه" [3]،

ومن الشعر قول الشاعر[4] :

كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا الْمَوْتَ جَلَلْ وَالْفَتَى يَسْعَى وَيُلْهِيهِ الْأَمَلْ

قال أبو بكر: " فدلّ ما تقدّم ((جَلَلْ)) وتأخّر بعده على أنّ معناه : كلّ شيءٍ ما خلا الموت يسير؛ ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن ((الجَلَل)) ها هنا معناه ((عظيم)) ... وقال الآخر:

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لَأَعْفُوَنْ جَلَلًا وَلَئِنْ سَطَوْتُ لَأوهِنَنْ عَظْمِي

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِـي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصـيبُنِي سَهْمِي

فدلّ الكلام على أنه أراد : فلئن عفوتُ لأعفُوَن عفوًا عظيمًا، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير يسير ؛ فلما كان اللبس في هذين زائلًا عن جميع السامعين لم يُنكر وقوع الكلمة على معنيين مختلفين في كلامين مختلفي اللفظين"[5].

فقول أبي بكر هنا : " فلما كان اللبس في هذين زائلًا عن جميع السامعين " يدلّ على أن السامعين، أو أبناء اللغة الواحدة يشتركون جميعًا في فهم دلالات الألفاظ والتراكيب، ذلك أنهم يفهمون ما يريده المتكلم بقوله، فلا لبس ولا غموض يعتري الألفاظ أو الجمل التي يلقيها المتكلم على المخاطَب، وهنا تتحقق التداولية بينهم، وفي كلام أبي بكر بن الأنباريّ إشارة واضحة إلى معنى التداولية، أو فكرة التداولية من غير أن يعرّفها اصطلاحًا .

ومن ما يدلّ على اتفاقهم أيضًا، أو اشتراكهم جميعًا في الاستعمال أي : استعمال الألفاظ

أو التركيب استعمالًا يشترك في فهمه الجميع قولُ ابن جني في أن استعمال العرب (استحوذ) غير معلٍّ، والقياس يقتضي إعلاله، لتحرك الواو. يقول : " ومن ذلك امتناعهم من استعمال استحوذَ معتلًا، وإن كان القياس داعيًا إلى ذلك ومؤذنًا به، لكن عارض فيه إجماعهم على إخراجه مصحّحًا؛ ليكون دليلًا على أصول ما غُيِّر من نحوه، كاستقام واستعان" [6]. والإجماع على شيءٍ اتفاق يفضي إلى تداول ما أُتُّفِقَ وأُجمِعَ عليه.

وكثرة الاستعمال دليل على تداول اللفظ أو التركيب بين أبناء اللغة من ما قد تؤدي هذه الكثرة في الاستعمال إلى كثرة التصرف في اللفظ كاختزال بعض حروفه، أو تغيّر في حركاته، وكلّ هذا التغيّر مألوف لدى جميع أفراد اللغة متكلمين ومخاطبين جاء في همع الهوامع في حديث صاحبه عن (أيمُن) في القَسم، وتصرّف العرب بها على وجوه : " فهذه عشرون لغةً. حكى ابن مالك منها بضعَ عشرةَ، والسبب في كثرة تصرفهم فيها كثرة الاستعمال"[7] ومن هذا التصرّف قولهم: مُ اللهِ، وأيمُ اللهِ، و اللهِ ... يقول أبو حيان في استعمال العرب لـ(أيمنُ) مرفوعًا على الابتداء، وخبره محذوف وجوبًا:"فـ(أيمنُ اللهِ) في القسم ملتزمٌ فيه الرفع على الابتداء، هكذا استعملته العرب، وخبره واجب الحذف "[8] فقول أبي

---

(1) سورة الإسراء : 101.
(2) سورة الأنبياء : 87.
(3) كتاب الأضداد : 14.
(4) البيت من شواهد كتاب الأضداد لأبي بكر بن الأنباريّ :13ونسبه ابن منظور : 640/1 إلى لبيد ، ولم أجده في ديوانه ، وفي لسان العرب: ما خلا الله بدل من :ما خلا الموتَ.
(5) كتاب الأضداد : 14. والبيتان في ديوان الحماسة لأبي تمام برواية أبي منصور الجواليقيّ : 64 وفيه تقديم البيت الثاني على الأول .
(6) الخصائص : 394/1.
(7) 394/2
(8) ارتشاف الضرب :480/2.

حيان " هكذا استعملته العرب " يدلّ على صورة تداوله بينهم : أنه مرفوعٌ وأن خبره لم ينطقوا به، أي صار حكمه واجب الحذف، ويستعمل المتكلم أحيانًا علاماتٍ يتواصل من خلالها مع السامع أو ينبهه إلى ما يقصده من معنى، ولا شكّ أن هذه العلامات أو الأدواتّ متفق عليها بين طرفَي التواصل، وهما المتكلم والمخاطَب، لأن " العلاقة بين العلامات ومؤوليها أو مستعمليها"[1] أمرٌ يحقق " الممارسة والتفاعل"[2] بين طرفي الخطاب من ذلك حديث ابن يعيش عن نون التوكيد عند اتصالها بالفعل المضارع، الذي من المعلوم أنه يدلّ على الحال أو الاستقبال، فتأتي النون في آخره معيّنة دلالته على الاستقبال قال ابن يعيش : " قال الله تعالى:(وتالله لأكيدَنّ أصنامكم)، وقال : (لنسفعًا بالناصية) فاللام للتأكيد واتصال القسم إلى المقسم عليه ... ودخلت النون أيضًا مؤكدةً وصارفةً للفعل ألى الاستقبال وإعلام السامع أن هذا الفعل ليس للحال "[3] فبمجيء النون هنا تعينت دلالة الفعل على الاستقبال، وبما أن أصحاب اللغة متفقون على دلالات ألفاظها وتراكيبها ـ كما ذكرت ـ فقد يحذف المتكلم شيئًا من كلامه بناءً على أن السامع يفهم ما يقول المتكلم، وماذا يعني، ذلك أن" إدراك قدر كبير مما لم يتمّ قوله على أنه جزء مما يتمّ إيصاله"[4] إلى السامع، فيفهم السامع ما يقوله المتكلم على الرغم من حذف بعض أجزاء الكلام، ذلك أن المحذوف قد ظهر في سياق آخر من ذلك حذف (لك) في قولهم: سقيًا لك قال سيبويه : " وأمّا ذكرهم ((لك)) بعد سقيًا فإنما هو ليبيّنوا المعنيَّ بالدعاء وربما تركوه استغناءً، إذا عرف الداعي أنه قد عُلِم مَنْ يعني"[5] ويقصد بالداعي هنا : المتكلم ، ومَنْ يعني: السامع ونجد سيبويه يعقد بابًا في كتابه سمّاه : ((هذا بابٌ يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل))[6]، إذ إن المَثَل تكون عبارته مختزلةً مقتضبةً، ولعلّ السبب في اختزالها " كثرة دورانها على الألسنة"[7]، وسيرورتها؛ لذا " قيل للقول السائر ... مَثَل " [8]،ويذكر لنا سيبويه أقولًا للعرب منها: ((هذا ولا زَعَماتِك)) والمعنى :"ولا أتوهم زَعَماتِك"[9]، وكذلك قول ذي الرّمة[10] في الديار والمنازل:

دِيَارُ مَيَّةَ إذْ مَيٌّ مُسَاعِفَةٌ وَلَا يَرَى مِثْلَهَا عُجْمٌ وَلَا عَرَبُ

يقول سيبويه : " كأنه قال : أذكرُ ديار ميةَ . ولكنه لا يذكر أذكر لكثرة ذلك في كلامهم، واستعمالهم إيّاه ... ولا أتوهّم زعماتِك لكثرة استعمالهم إيّاه ... من ذلك قول العرب: ((كليهما وتمرًا))، فهذا مَثَل قد كثر في كلامهم واستعمل، وتُرِك ذكر الفعل"[11].

---

(1) الأفق التداوليّ ــ نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية :8، والتداولية في الفكر النقديّ :19
(2) شرح المفصل : 140/5.
(3) التداولية جورج يول : 19.
(4) الكتاب : 1/ 312.
(5) الكتاب : 280/1.
(6) العصر الجاهليّ د. شوقي ضيف : 404.
(7) الكشاف :79/1.
(8) الكتاب :280/1. يبدو أن هذا القول ليس مثلًا ، ذلك أن الميداني ــ على سبيل المثال ــ لم يذكره في مجمعه.
(9) ديوان شعر ذي الرمة : 60. وفيه : تُساعِفنا بدل مساعفة .
(10) الكتاب :280/1-281. والمَثَل : (كليهما وتمرًا) في مجمع الأمثال :33/3.
(11) الكتاب :272/1.

فإذن هذا الحذف إنما كان، لأن الكلام المقول مفهوم ومدرك من جهة المخاطَب، فلا داعي لذكر المحذوف، وأنه مستعمل عند جميعهم، وكلٌّ يعرف ذلك فلا يتبادر إلى ذهن أحدهم غير المتعارف عليه، وبناءً على تعارف أبناء اللغة على ما تعورف عليه نجدهم يحذفون أحيانًا أجزاءً من التركيب لكثرة تداوله بينهم " واكتفاءً بعلم مَن يعني"[1] ، حتى صار هذا المحذوف متعينًا معروفًا لدى السامع لا يلتبس عليه أمره ، ولا يرتبك عنده معنى ما يسمعه، يقول سيبويه في باب التحذير: " ومن ذلك قولهم : ((مازِ رأسَك والسيفَ)) كما تقول : رأسك والحائطَ وهو يحذّره ، كأنه قال :اِتقِ رأسَك والحائطَ وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنّوْا لكثرتها في كلامهم، واستغناءً بما يرَون من الحال ، وبما جرى من الذكر، وصار المفعول الأول بدلًا من الفظ بالفعل حين صار عندهم مِثل : إيّاك ، ولم يكن مِثل: إياك لو افرته، لأنه لم يكثر في كلامهم كثرة إيّاك، فشبّهت بإيّاك حيث طال الكلام وكان كثيرًا في الكلام . فلو قلت : نفسَك، أو رأسَك، أو الجدار ، كان إظهار الفعل جائزًا نحو قولك : اِتقِ رأسَك، واحفظ نفسَك ، واتقِ الجدارَ .فلما ثنّيتَ صار بمنزلة إيّاك، وإياك بدلٌ من اللفظ بالفعل "[2].

نرى في نصّ سيبويه ثلاثة مسوّغات لحذف الفعل، هي : كثرة ورود اللفظ أو التركيب في كلامهم، والحال المشاهدة المغنية عن الذكر، والحديث السابق الذي يدعو إلى حذف شيء من التركيب كان قد سبق ذكره هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجده يعوّل على طول الكلام ويجعله داعيًا من دواعي الحذف، وكأنّ في طول الكلام إفهامًا للسامع وتوضيحًا فلا داعي لذكر ما يغني عنه هذا الطول وينوب عن معناه ؛ ولذلك قال : " وإنما حذفوا في هذه الأشياء حين ثنّوْا لكثرتها في كلامهم "[3]، وهو يقصد بتثنية الكلام إضافة شيء آخر يطول به، الكلام كإضافة (والسيفَ) إلى قولك: مازِ رأسَك. ولو أفردنا وقلنا : مازِ رأسَك جاز إظهار الفعل نحو قولك: اتقِ رأسَك ولمّا ثنّى المتكلم صار الكلام بمنزلة قولك : إيّاك ، وإيّاك كما يقول سيبويه:" بدلٌ من اللفظ بالفعل"[4].

نجد سيبويه ــ في ما يستشف من كلامه ــ أنه يظهر العلاقة بين منشئ الكلام والمتلقي لأن هذه العلاقة "تؤدي دورًا مهمًا في عملية تحليل الخطاب ومن ثم فهمه "[5]، فإذا أراد المتكلم حذف شيء من كلامه أطال بما يعوّض عن المحذوف، وإذا أراد إظهار المحذوف اختصر كلامه، وهنا تظهر" علاقة العلامات بمستعمليها "[6]، أي: يكون طول الكلام علامة على الحذف ، وقصر الكلام علامة على إظهار المحذوف ولا شكّ أن السامع أو المتلقي على علم تامّ بأحوال الكلام أي : متى يحذف منه، ومتى يُظهر هذا المحذوف، ولو لم يكن على علم بذلك لما استطاع المتكلم سلوك أيٍّ من هذين التعبيرين : الطويل، أو القصير ومن ما يبيّن أهمية علم المخاطَب مَنْ يعني المتكلم، وانبنى عليه حذف ما يعلمه المخاطَب؛ فيكون ذكره لا قيمة له من الناحية الإخبارية، قولُ سيبويه في قول الشاعر[7]:

وَعَدْتَ وَكَانَ الخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً مَوَاعِـيدَ عُـرْقُـوبٍ أَخَـاهُ بـيَثْرِب

(1)الكتاب : 1/ 312.
(2) الكتاب : 275/1.
(3) الكتاب : 275/1.
(4) الكتاب : 275/1.
(5) التداولية في الفكر النقديّ : 195. ورد في النص " ومن ثم فهمه " والصواب : ثم فهمه .
(6) التداولية ومنزلتها في النقد الحديث والمعاصر : (شبكة المعلومات) .
(7) البيت من شواهد سيبويه : 272/1. وقد نسب إلى الأشجعي.

قال : " كأنّه قال : واعدتّني مواعيدَ عرقوبٍ أخاه، ولكنه ترك ((واعدتني)) استغناءً بما هو فيه من ذكر الخُلْفِ، واكتفاءً بعلم من يعني بما كان بينهما قبل ذلك "[1] ومما يؤيد أهمية المخاطَب في الجانب التداوليّ حذفهم الفاعل في صيغة الأمر اعتمادًا على أن المخاطَب هو المقصود بالحكم، يقول الدكتور عبد الستار الجواريّ : " أمّا صيغة فعل الأمر، فإنها لا تكون إلا للمخاطَب ولذلك لايظهر بعدها الفاعل المطلوب منه القيام لا ظاهرًا و لا مضمرًا ... لأن ما سمّي فاعلًا في هذا التركيب الإنشائيّ حاضرٌ بشخصه فعلًا أو حكمًا فلا يحتاج إلى التلفّظ به ظاهرًا كان أو مضمرًا "[2].

ومما يعتمد فيه على علم المخاطَب، وقد حذف، قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [3] ، قال سيبويه : " كأنّه قال :ولا يحسبَنَّ الذين يبخلون البخلّ هو خيرًا لهم . ولم يذكر البخل اجتزاءً بعلم المخاطب بأنه البخل ،لذكره يبخلون "[4]، واستدلّ سيبويه أيضًا بقول العرب في باب حذف ما يحذف اكتفاءً بعلم المخاطب قولهم: ((من كذَب كان شرًّا له)). يقول : " يريد كان الكذبُ شرًّا له ،إلّا أنه استغنى بأن المخاطب قد علِم أنه الكذبُ، لقوله كذَب في أوّل حديثه "[5]، فقوله : " إلّا أنه استغنى بأن المخاطب قد علِم أنه الكذب " دليل على العلاقة الوثيقة بين المتكلم والمخاطب، وما بينهما من وشائج التفاهم وأن" مالم يتمّ قوله على أنه جزء مما يتمّ إيصاله" [6] مما يُظهر ذلك أيضًا قول الرمانيّ في باب حذف الفعل في باب التحذير : " لأنّ التحذير مما يخاف منه وقوع المخوِّف ، فهو موضع إعجال لا يحتمل تطويل الكلام، لئلا يقع المخوِّف بالمخاطَب قبل تمام الكلام "[7] فإذن يراعي المتكلم ما يحتمل وقوعه على المخاطَب، لذا نجده يحذف الفعل لئلا يطول الكلام ؛ لأن بطوله قد يقع على المخاطَب ما يخاف منه عليه ، فاجتزأ المتكلم كلامه مراعاةً للمخاطَب، وهنا تظهر القيمة الإبلاغية للكلام، فبطوله لايحقق المتكلم مراده بتحذير المخاطَب من وقوع الضرر به، ولولا هذا الاختصار لما تحقق له هدفه من كلامه ونرى الأعلم الشنتمريّ هو الآخر يولي الاهتمام بالمخاطَب لغرض إفهامه من قبل المتكلم، فيستعمل المتكلم علامات يريد من خلالها قصر اهتمام المخاطَب بجانب معين من الكلام، ولا ينصرف ذهنه إلى جانب آخر، أو دلالة أخرى يحتملها الكلام ، فباستعمال هذه العلامة من قبل المتكلم يتضح المقصود للمخاطَب ومن أمثلة ذلك ما تحدّث به الأعلم الشنتمريّ عن ضمير الفصل وأهميته في قصر المعنى على جانب معين دون جوانب أخرى يحتملها الكلام ؛ ليتضح المقصود من الكلام بالنسبة للمخاطَب يقول : " إنَّ أصل دخول الفصل إيذان للمخاطَب المحدَّث بأن الاسم قد تمّ ولم يبق منه نعت ولا بدل ولا شيء من تمامه ، وإنّ الذي بقي من الكلام هو ما يلزم المتكلم أن يأتي به وهو الخبر "[8] .

يتضح من كلّ ما تقدم أن الاستعمال عنصر مهم من عناصر العملية التداولية؛ إذ يتقاسمه كلّ من المتكلم والمخاطَب ، ذلك أن الوحدات اللغوية التي يستعملها المتكلم يستعملها المخاطَب أيضًا فيما لو قام بدور المتكلم، فالألفاظ أو التراكيب اللغوية التي يستعملها أبناء اللغة الواحدة يفهمونها جميعًا، لذا وجدنا من خلال ما تقدم أن الاستعمال له دور فاعل في اختزال بعض التراكيب أو الألفاظ ، ولا يجد المخاطَب حرجًا في فهم ما يريد المتكلم توصيله إليه .

(1) نحو المعاني :152.
(2) سورة آل عمران :180.
(3) الكتاب : 391/2.
(4) الكتاب : 391/2.
(5) التداولية جورج يول: 19.
(6) الأشباه والنظائر : 290/1.
(7) النكت في تفسير كتاب سيبويه : 674/1.
(8) النكت في تفسير كتاب سيبويه : 674/1.

المبحث الثالث/ السياق

والسياق هو الآخر له دوره في كشف المعنى الذي يريده المتكلم من بين معانٍ ودلالات عدة تحتملها اللفظة، إذ إن السياق يخرجها من هذا العموم ويضيق دائرتها إلى الخصوص ، فالفظة تمتلك كلّ طاقاتها الدلالية والتعبيرية، وهي خارج السياق، لكنه يحصرها في دلالة من دلالاتها، ويصبح كالقيد الذي لا تستطيع الإفلات عنه إلى دائرة أوسع تدخل ضمن محتواها المحدد محتويات أخرى، فـ" الكلمة خارج السياق تحمل معها كلّ ما يمكن أن تثيره من دلالات يحتمل أن تؤديها؛ لذا لا يمكن الوقوف على المعنى المحدد للكلمة إلّا من خلال إنجازها أو أدائها في سياق مقاليّ ومقاميّ محددين "[1]، فهي ـ أي الكلمة ـ " كمنتجها الإنسان ، لا يمكن أن تمتلك ذاتها ودلالتها إلّا من خلال ذوات الكلمات التي تزاوجها، أو تساق معها "[2].

والسياق مقاليّ ومقاميّ.

أمّا السياق المقاليّ :

فيراد به أن ينظر إلى ما يسبق اللفظ أو التركيب من كلام، وما يتلوه من كلام، أي : إن اللفظ أو التركيب لا يظهر معناه الذي يريده المتكلم إلّا من خلال النظر في السياق الذي ورد فيه يقول الشافعيّ : " وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامًّا ظاهرًا يراد به العامّ الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعامًّا ظاهرًا يراد به العامّ ويدخله الخاصّ، فيستدلّ على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعامًّا ظاهرًا يراد به الخاصّ ، وظاهرًا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، فكلّ هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره "[3] ونجد زعيم المدرسة السياقية (فيرث) يؤكّد" بأن المعنى لا ينكشف إلّا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي : وضعها في سياقات مختلفة . ويقول أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم : معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وضعها أو تحديدها إلّا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها "[4].

إذن لا يظهر معنى المفردة ويتحدد إلّا من خلال السياق الذي يكتنفها، أي : بالنظر إلى وحدات لغوية أخرى تسبقها وتلحقها ؛ لأن هذه السوابق واللواحق من هذه الوحدات تلقي بظلالها على ما يكشف عن الدلالة التي يريد إيصالها المتكلم إلى السامع أو القارئ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال إهمال ما يسبق أو يلحق المفردة أو التركيب من سياقات ؛ لأنها تتعانق جميعًا لإبراز المعنى وإيضاحه . قال عبد القاهر الجرجانيّ : " ومعلوم علم الضرورة أن لن يُتصوّر أن يكون للفظة تعلّق بلفظة أخرى من غير أن يعتبر معنى هذه مع معنى تلك، ويراعى هناك أمرً يصل إحداهما بالأخرى "[5] وقال أيضًا:" وليت شعري، كيف يُتصوّر وقوع قَصْد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ؟ ومعنى((القصْد إلى معاني الكلم)) أن تُعلِم السامع بها شيئًا لا يعلمه، ومعلوم أنك ، أيها المتكلم ، لست تقصد أن تُعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها، فلا تقول : ((خرج زيد))، لتعلمه معنى ((خرج)) في اللغة، ومعنى ((زيد)) كيف ؟ ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم، ولا الاسم وحده من دون

(1) علم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربيّ : 241.
(2) علم الدلالة التطبيقيّ في التراث العربيّ : 242.
(3) الرسالة: 52.
(4) علم الدلالة (أحمد مختار عمر) : 68– 69.
(5) دلائل الإعجاز : 406.

اسم آخر أو فعل، كلامًا وكنت لو قلت ((خرج)) ، ولم تأتِ باسم ، ولا قدّرت فيه ضمير الشيء، أو قلت : ((زيد)) ، ولم تأتِ بفعل ولا اسم آخر ولم تضمره في نفسك، كان ذلك وصوتًا تصوّته سواءً ، فاعرفه"[1].

ومن أمثلة السياق المقاليّ : لفظ (عند) التي في مطلقها تدلّ على الزمان والمكان، لكنّ السياق المقاليّ هو الذي يحدد دلالتها مكانيّة أو زمانيةً، فمثال ما حدّد السياق المقاليّ مكانيّتها قولك : كنتُ عند زيدٍ . فلفظ (زيد) الجثة لا تخرج عن مكان يحيط بها؛ لذا كانت بدلالتها على المكان محدِّدة لمكانية (عند)، وتقول : أراك عند الساعةِ العاشرةِ . فحدّد لفظ (الساعة) وقتيةَ (عند)، وقد يخرجها السياق المقاليّ أيضًا عن دلالتها على الزمان أو المكان إلى دلالة مجازية، وذلك نحو قوله تعالى :﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [2].

فـ(عند) هنا لا يمكن أن تتحدد بمكان؛ لأن الله عزّ وجلّ لا يحيط به مكان ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾ [3] ، ولا يحدّه زمان ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[4] فـ(عند) في آية الشورى تخرج إلى معنى التشريف يقول أبو حيان : " العندية عندية المكانة والتشريف، لا عندية المكان "[5]والسياق المقاليّ الذي أخرجها إلى معنى التشريف هو قوله : (ذلك هو الفضلُ الكبيرُ)، والفضل شيءٌ معنويّ، لا ماديّ، يدلّ على المكانة والمنزلة الرفيعة التي ينالها المؤمنون يوم القيامة لقاء أعمالهم الحميدة في الدنيا، ومن أمثلة السياق المقاليّ الذي يسهم في تحديد دلالة المفردة ما نجده في دلالة (كَفَرَ) التي نجدها في سياق مقاليّ تدلّ على إنكار وجود الله تعالى، وذلك نحو قوله سبحانه :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[6]، قال هارون بن موسى القارئ: " يعني الذين كفروا بتوحيد الله تعالى "[7]. ويبدو أن الذي حمل هارون القارئ على جعل كلمة (كفروا) أنها تعني : الكفر بتوحيد الله جلّ جلاله هي لفظ (لا يؤمنون) الواردة في نهاية الآية؛ لأن الإيمان يقابله الكفر. فهنا أفاد السياق المقاليّ في بيان دلالة الكفر، ونجد لفظ (الكفر) في سياق مقاليّ آخر يدلّ على التبرّؤ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ ﴾ [8]، قال إسماعيل بن أحمد النيسابوريّ معناه : " البراءة" [9]ولعلّ الذي حمل النيسابوريّ على القول بأن الكفر هنا هو " البراءة " سياق مقاليّ من سورة الممتحنة في قوله تعالى :﴿ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾[10]، والقرآن يفسّر بعضه بعضًا، إذ " إن في القرآن الكريم آياتٍ يستدلّ على تفسيرها بنظائرها في مواضع أخر[11]وجاء في مغني اللبيب في حديث ابن هشام عن (لا) : " القرآن كله كالسورة الواحدة ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى "[12] ويبدو أيضًا أن معنى التبرّؤ يدلّ عليه سياق مقاليّ في آية العنكبوت نفسها،

(6) دلائل الأعجاز : 412.
(1) سورة الشورى : 22.
(2) سورة البقرة : 115.
(3) سورة الرحمن : 26– 27.
(4) البحر المحيط : 333/9.
(5) سورة البقرة : 6.
(6) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم : 25.
(7) سورة العنكبوت : 25.
(8) وجوه القرآن : 483.
(9) سورة الممتحنة : 4.
(10) مناهج المفسرين : 37
(11) 217/1

وذلك قوله تعالى:﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾(1)؛

لأن ما يقابل المودة هو التبرّؤ والبغضاء قال قتادة : ((كلُّ خُلّةٍ تنقلب يوم القيامة عداوةً إلّا خُلَّةَ المتقين))(2) ولعلَّ قتادة في هذا القول استلهم الآية الكريمة : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(3) ، والمراد بالتبرّؤ أن " يتبرّأ القادة من الأتباع ويلعن بعضكم بعضًا أي ويلعن الأتباعُ القادة لأنهم زيّنوا لهم الكفر " (4)ومن الألفاظ الدالة على معانٍ عدة يتحكم بإظهار كلّ معنى منها السياق الذي يرد فيه ، لفظ (الأمّة) التي من معانيها : الحينُ أو السنون المعدودة قال تعالى :﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾(5) ، أي: بعد حين (6) والدالّ على هذا المعنى من بين المعاني التي يمتلكها هذا اللفظ السياقُ المقاليّ ؛ إذ ورود لفظ (ادّكر) الذي يعني التذكر، وإنما يكون التذكر بعد نسيان شيء مضى على نسيانه زمن ما ثم حصل تذكّره؛ لذا تكون كلمة (أمّة) بمعنى حين، ومن ما يقوّي حصول النسيان للناجي قراءةُ من قرأ : (بعد أمَهٍ)(7) ، والأمَهُ معناه : النسيان . ولا شكّ أن النسيان استغرق مدةً من الزمن ثم حصل التذكّر، وعليه يكون معنى (بعد أمّةٍ) : بعد حين ويقوّي كون (أمّة) بمعنى حين، أو سنين معدودة قوله تعالى ـ وهو سياق مقاليّ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ (8)، " أي سنين معدودة " (9)

وتأتي (الأمّة) في سياق آخر بمعنى: الدين قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (10)قال ابن قتيبة : " الأمّة: الدينُ ... قال النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَ تْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهوَ طَائِعُ

أي : ذو دين" (11)والسياق المقاليّ الذي يكشف عن معنى (الأمّة) بمعنى الدين هي لفظ (مهتدون) الوارد في آية الزخرف، وهو جمع مُهتدٍ، والمهتدي : هو مَن يتقدمه مَنْ يهديه ، تقول : " هديتُه الطريقَ هدايةً ، أي : تقدمته لأرشده ، وكلّ متقدم لذلك هادٍ "(12)، والمهتدي مَن وقعت عليه الهداية من الهادي ، قال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ ﴾ (13) أي : " لطف بهم وأعانهم وأرشدهم ... وأنّ كلّ مَن سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى

(1) سورة العنكبوت : 25.
(2) مجمع البيان : مجلد 279/4.
(3) سورة الزخرف :67.
(4) مجمع البيان : مجلد 279/4.
(5) سورة يوسف : 45.
(6) ينظر تأويل مشكل القرآن : 249.
(7) هي قراءة الحسن .ينظر اتحاف فضلاء البشر :332.
(8) سورة هود : 8.
(9) تأويل مشكل القرآن : 249.
(10) سورة الزخرف :22.
(11) تأويل مشكل القرآن :249. وبيت النابغة في ديوانه :82.
(12) معجم مقايس اللغة : 893. مادة :(هدى).
(13) سورة الكهف : 17.
(14) الكشاف : 681/2.
(15) سورة الزخرف : 23.

السعادة[14]، ويؤكد كون (أمة) بمعنى :(دين) سياق مقاليّ آخر يتلو هذه الآية ، وهي قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ [15].

فلا بدّ أن يكون لكلّ نذير دين يدعو إليه ، وهؤلاء المترفون يتبعون ما وجدوا أباءهم عليه؛ لذا يكون لفظ (أمّة) بمعنى: دين .

أقول : ولكي تتحقق العملية التداولية لابدَّ أن يكون المتكلم والمخاطب على علم بدلالات هذه المفردات ؛ لأنه " محال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف "[1]، ويكون السياق المقاليّ أو المقامي معوانًا لبيان الدلالة المقصودة للمفردة من بين دلالات عدة فيفهمها المخاطَب .

أمّا دور السياق المقاميّ في بيان المعنى المقصود فسأبيّنه بعد تعريف السياق المقاميّ فهو ـ أي السياق المقاميّ : " كلّ ما يحيط بالنص من ظروف تتصل بالمكان أو المتكلم أو المخاطَب في أثناء التفوه ، فتعطيها هذه الظروف دلالتها التي يولدها هذا النوع من السياق "[2].

ومن ظروف النصّ ـ على سبيل المثال ـ أسباب النزول التي عوّل عليها المفسرون في بيان مضامين النصّ القرآنيّ في مواضع كثيرة من تفاسيرهم، ولا نكاد نجد تفسيرًا يخلو من ذكر أسباب النزول؛ لأهميتها الكبيرة في توضيح دلالات الآيات، " إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأوْلى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ولا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلّا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب "[3] وعلى هذا نرى أن من المفسرين من يذهب إلى أن (الواو) تعني مغايرة ما بعدها لما قبلها، لا العطف على ما سبقها أخذًا بأسباب النزول [4]، وذلك في قوله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾ [5].

فما بعد (الواو) هي مرتبة ثانية للمؤمنين، وصنف آخر منهم ،فـ(الواو) هنا لا تفيد العطف، إذ لو أفادت العطف لكان ما بعدها صفةً أخرى للمؤمنين تضاف إلى صفاتهم التي ذكرها في آية سابقة لهذه الآية، إذ قال جلّ وعلا : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [6].والذي حمل بعض المفسرين [7] على أن الواو هنا تفيد المغايرة هو ما ذكر في أسباب نزولها ، ذلك أن

أبا مقبل وهو منهال التمّار أو نبهان التمار أتته امرأة تشتري منه تمرًا ، فقيل : ضمّها وقبلها، وقيل : ضرب على عجزها، ثم ندم فأتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذكر ما وقع منه، فنزلت وهذا هو قول الجمهور[8].

(1) دلائل الإعجاز : 412.
(2) البحث الدلاليّ في كتب معاني القرآن : 56، والسياق والتوجيه النحويّ في القرآن الكريم:18.
(3) أسباب النزول للواحديّ :12.
(4) ينظر البحر المحيط : 348/3.
(5) سورة آل عمران : 135.
(6) سورة آل عمرآن :133– 134.
(7) ينظر البحر المحيط : 348/3.
(8) ينظر أسباب النزول للواحديّ : 98، والبحر المحيط : 348/3.

ومن الظروف المحيطة بالنصّ والمساعدة على فهمه ما نجدة من أثر الحديث الشريف في تفسير النصّ القرآنيّ وبيان مضمونه، ذلك أن " كثيرًا ما كان الصحابة يسألون عمّا أشكل عليهم من القرآن، فيبيّن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ذلك لهم، بأقواله تارةً وبأفعاله وتقريراته تارةً أخرى "[1]، ويُظهر لنا ابن تيميّة (ت 728هـ) أهمية الحديث الشريف وقيمته من حيث تسليط الضوء على ما تحويه الآيات من أوامر، أو نواهٍ ، أو تنظيم لحياة الفرد والمجتمع، قال : " فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ : كلّ ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن "[2] ولم تكن أهمية الحديث منصبةً على بيان فحوى النصّ القرآنيّ ، بل " نرى علماء العربية يحتجون به في الأدب والبلاغة واللغة والتفسير "[3]؛ لذا نجد من المفسرين من يستعين بالحديث الشريف لترجيح وجه اعرابيّ من بين وجوه أخرى، وذلك في قوله تعالى :﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [4]. إذ جعل (سود) بدلًا من (غرابيب)، قال :"وهذا أحسن ، ويحسّنه كون غرابيب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيدًا ومنه ما جاء في الحديث : ((إنّ الله يبغضُ الشيخ الغربيب)) "[5] وأقوال الصحابة (رضوان الله عليهم) هي الأخرى من السياق المقامي الذي يستعان به في فهم نصوص الذكر الحكيم، وأحيانًا نجد المفسر يرجّح على وفقها الرأي الذي يراه صحيحًا من ذلك ترجيح أبي حيان الأندلسيّ إعراب (مَن) على أنها مجرورة بمضاف محذوف في قوله تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [6]، إذ رأى أن (الواو) عاطفة، و (مَنْ) مجرورة بإضافة (حَسْب) المحذوفة إليها، والدالّ عليها (حسبُك) الواردة في سياق الآية [7]، وقد استعان أبو حيان في هذا الترجيح بقول الشعبي وابن زيد : إن معنى الآية : حسبك الله وحسب من اتبعك. وقد يكون للمكان أهميته في توجيه دلالة المفردة، إذ إن " من البديهي أن يكون للمحيط المادي... تأثير فعال على كيفية تفسير تعابير الإشارة "[8]، ذلك أن المفردة ـ كما بيّنا ـ قد تحمل أكثر من دلالة، فيكون لأهمية المكان وقيمته دور في رصد الدلالة المرادة للكلمة من بين دلالات أخرى من ذلك إرادة معنى الحالّ دون الحلال في قوله تعالى :﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[9]، إذ رأى الزمخشريّ أن معنى (حِلٌّ) هو أن يحِلّ للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قتل من يشاء وأسر من يشاء في فتح مكة قال : " (وأنت حِلٌّ بهذا البلد) يعني : وأنت حِلٌّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلَّها له "[10].وذهب أبو حيان إلى أن معنى (حِلّ) أي : حالّ مقيم في هذا البلد وهو مكة قال : " (وأنت حِلٌّ) جملةٌ حالية تفيد تعظيم المقسم به، أي فأنت مقيم به ... أقسمَ بها لما جمعت من الشرفين، شرفها بإضافتها إلى الله تعالى، وشرفها بحضور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإقامته فيها، فصارت أهلًا لأن يقسم بها "[11] فإذن شرف

(9) السياق والتوجيه النحويّ في القرآن الكريم : 64.
(1) مقدمة في أصول التفسير : 93.
(2) مقدمة موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث : 5 .
(3) سورة فاطر : 27.
(4) البحر المحيط : 30/9. والحديث في : فيض القدير شرح الجامع الصغير: 284/2تحت رقم :1851.
والشيخ الغربيب هو الذي يخضّب بالسواد .ينظر المفردات في غريب القرآن : 361مادة (غرب) والقاموس المحيط :379/3. مادة (غ ر ب).
(5) سورة الأنفال : 64.
(6) ينظر البحر المحيط :348/5.
(7) التداولية جورج يول : 45.
(8) سورة البلد : 1–2.
(9) الكشاف :742/4.
(10) البحر المحيط : 479/10–480.

المكان وهو مكة لما فيها بيت الله هو الذي حمل ابا حيان على القول بأن معنى (حِلّ) هو حالٌّ ومقيم دون أن يكون معناها أن يحِلَّ للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قتل من يشاء أو أسر من يشاء ولما كان لمكة الشرف والقداسة ، إذ ضمت بيت الله مضافًا إليها حلول رسول الله فيها حَقَّ أن يقسم بها الله تعالى لاحتوائها الشرفين.

المبحث الرابع/ الأفعال الكلامية

تمثل الأفعال الكلامية الواقعة من قبل المتكلم، وما يترتب عليها من كلام يمثل ردّ فعل المخاطَب تمثل جانبًا من جوانب التداولية والتواصل، والفعل الكلاميّ هو ما "يراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة ومن أمثلته : الأمر، والنهي، والوعد، والسؤال ... والتأثير في المخاطب بحمله على فعل أو تركه أو دعوته إلى ذلك، أو تقرير حكم من الأحكام ... أو وعد المتكلم للمخاطب أو وعيده ... أو مجرد الإفصاح عن حالة نفسية معينة "[1]، وقد عرفت الأفعال الكلامية أيضًا بأنها " كلّ خطاب ينهض على تراتبية أفعال تتضمن : أفعالًا قولية /تعبيرية، لتحقيق أفعال إنجازية/ لا تعبيرية كالطلب والأمر والوعد والوعيد ... إلخ وأفعال تأثيرية تخصّ ردود فعل المتلقي /المخاطَب كالرفض والقبول ... إلخ"[2].

نستخلص من هذا النصّ أنّ الأفعال التأثيرية التي يمارسها المتكلم على شكل كلام يلقيه على المخاطَب، نجد لها صدًى في نفس المخاطَب، فيترجم ذلك على شكل ردود أفعال تتسم أما بالقبول، أو الرفض، أو الانصياع، أو الغضب ، أو الخجل إلى غير ذلك من الأفعال الاستجابية عند المتلقي .

ومن الأمثلة التراثية التي تمثل أثر الكلام في المتلقي أن قريشًا أرسلت عتبة بن ربيعة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه) في أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبة) آيات من (حم السجدة) ، فلما رجع عتبة إلى قريش قالوا : عاد أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به [3].

نستدلّ من تغيّر وجه أبي الوليد على استجابته، وتأثير كلام الله عزّ وجلّ وهو القرآن الكريم في نفسه، مما ظهر أثره على وجهه .

ومن أثر الأفعال الكلامية في المتلقي ـ في ما يخص التراث ـ ماحدا بنفر من الأنصار حين قرأ عليهم الرسول(صلى الله عليه وآله وصحبه) القرآن الكريم في الموسم إلى الإيمان، ثم عادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها [4]، وكذلك عندما سمعت الجنّ القرآن الكريم لم تتمالك أن قالت[5] : ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [6]. فقد أثّر القرآن الكريم في الجنّ فكان ردّ فعلهم أن أمنوا بالله تعالى، ولن يشركوا به أحدًا .

وكذلك يصف لنا القرآن الكريم أثره في متلقيه من المؤمنين، واستجابتهم له كاقشعرار جلودهم وإلانتِها مع الإنة قلوبهم إلى ذكر الله عزّ وجلّ يقول عزّ مَن قائل :﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

(1) التداولية عند العلماء العرب :10– 11.
(2) التداولية في الفكر النقدي :53، وينظر من النصّ إلى الفعل :81. وأفعال تأثيرية. الصواب : أفعالًا.
(3) ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ :70– 71.
(4) ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ : 70– 71.
(5) ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ : 70– 71.
(6) سورة الجنّ : 1–2.

يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾[1]، وكذلك تظهر الأفعال الكلامية، من قول يؤديه المتكلم، ومن ردّ فعل أو استجابة من لدن السامع أو المتلقي في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2].

يقول الفخر الرازي: " الضمير في قوله ﴿سمعوا﴾

يرجع إلى القسيسين والرهبان الذين أمنوا منهم و (ما أنزل) يعني القرآن إلى الرسول يعني محمدًا عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس : يريد النجاشي وأصحابه، وذلك لأن جعفر الطيار قرأ عليهم سورة مريم، فأخذ النجاشي تبنةً من الأرض وقال : والله مازاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا، وما زال يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة "[3].

هنا تظهر لنا جملة أفعال كلامية في الآية الكريمة وتفسيرها، وهذه الأفعال تراتبية : الفعل الأول هو سماعه لقراءة جعفر الطيار(رضي الله عنه)، والفعل الثاني الذي هو ردّ فعل لسماعهم كلام الله تعالى أن فاضت أعينهم من الدمع إلى أن أكمل جعفر قراءة سورة مريم، ثم ترتب على سماع القرآن فعل آخر هو إيمانهم بهذا القرآن وبالذي يدعو إليه وهو الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه)، وهو قولهم : (ربنا أمنا) ثم ترتب على الإيمان دعائهم : (فاكتبنا مع الشاهدين) أي : " مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة "[4] وكذلك نجد الأفعال الكلامية من قول، وردّ فعل أو استجابة من قبل المتلقي، أو حمل المتلقي على الاتّعاظ وأخذ الاعتبار ما ضربه الله تعالى مثلًا، وهو عبدان مملوكان : أحدهما مملوك لأشخاص عدة، وآخر مملوك لشخص واحد، فالأول يَحار في أمره لا يدري أيُّ مالكيه يطيع ويأتمر بأمره ، والآخر ليس يحار في أمره ، بل يطيع رجلًا مالكًا واحدًا، لا تتضارب عنده الآراء [5]قال تعالى :﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[6] نجد أنّ " الدلالة التي تؤكدها الصورة النفسية لهذا الأنموذج ـ من خلال هذ الآية ــ هي الحيرة المرعبة، والتوزّع القلبي أو التشظّي النفسي، والانعزال الداخلي القاتل ... إلخ، فإذا كانت الصورة النفسية المستنبطة من هذه الآية تحمل كلّ هذا وغيره، فإنها ـ كذلك ـ تسبر أغوار نفس المتلقي، فتثير فيه انفعالات وجدانية تحمله على العظة والاستجابة محاولة السيطرة على النوازع الداخلية ، مثيرة في ذلك رغبة التجاوب ... من خلال تهيئة الجوّ المناسب الفعّال، لتأثيل الهدف المرجوّ، والمثل العليا " [7]، ونجد الآية الكريمة تنهى بـ(الحمد الله)، وهو حمل المتلقي على أن تكون عبادته لله وحده، أي:" يجب أن يكون الحمد متوجهًا إليه وحده والعبادة"[8] وهنا يبدو أثر الأفعال الكلامية واضحًا في التأثير في نفس المتلقي، وحملِه على عدم الإشراك بالله تعالى، وهنا تتحقق التواصلية بين الخالق سبحانه ومخلوقه عبر

(7) سورة الزمر :23.
(8) سورة المائدة : 83.
(1) التفسير الكبير : 414/4. والصواب : لأن جعفرًا .
(2) الكشاف : 656/1.
(3) ينظر الكشاف : 121/4– 122.
(4) سورة الزمر : 29.
(5) الصورة النفسية في القرآن الكريم : 192.
(6) الكشاف :4/ 122.
(7) شرح نقائض جرير والفرزدق . ألفه ورواه : أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى شرحه.د. محمد التونجي: 531/2، 533، 538.

العبادة الخالصة لوجهه الكريم دون أن يشوبها وجه من وجوه الإشراك المربك للعقول ومن أثر الأفعال الكلامية ما قالته النوار للفرزدق، وقد تزوّج بأعرابية، وفضّلها عليها : "ويلَك تزوّجتَ أعرابية دقيقةَ الساقين تبول على عقبَيْها على مئة بعير !. فقال الفرزدق يفضّلها عليها، ويعيِّرها بأمِّها، وكانت أمَةً:

لَجَارِيَةٌ بَيْنَ السَّلِيلِ عُـرُوقُـهَـا وَبَيْنَ أَبِي الصَّهْبَاءِ مِنْ آلِ خَـالِدِ
أَحَقُّ بإِغْلَاءِ الْمـهُورِ مِنَ الَّتِي رَبَتْ وَهْيَ تَنْزُو فِي حُجُورِ الْوَلَائِدِ "[1].

قال أبو عبيدة : " فلما سمعتْ النوار ذلك بعثتْ إلى جرير وقالت للفرزدق :أما واللهِ لأُخزِيَنَّك يا فاسقُ فجاءها جرير فقالت له : ألا ترى ما قال لي الفاسق؟ وشكت إليه ما قال لها فقال لها جرير : أنا أكفيكِهِ . فقال جرير:

لَسْتُ بِمُعْطِي الْحُكْمِ عَنْ شِفٍّ مَنْصَبِ وَلَا عَنْ بَنَاتِ الْحَنْظَلِيِّينَ رَاغِبُ
أَرَاهُنَّ مَاءَ الْمُـزْنِ يُشْفَـى بِهِ الصَّدَى وَكَانَتْ مِلَاحًا غَيْرَهُنَّ الْمَشَارِبُ
وَلَوْ كُنْتَ حُرًّا كَـانَ عَشْـرٌ سِيَـاقَـةً إِلَى آلِ زِيقٍ وَالْوَصِيفُ الْمُقَارِبُ"[2]

ومعنى الأبيات : " لا أحكم عن نقص منصب، ولستُ راغبًا عن بنات الحنظليين، وكنت أرى بنات الحنظليين يشفين المتعطش إلى الهوى ، في حين أن الصبايا غيرهن ماؤهنّ ملحٌ ، وأنت يا فرزدق لستَ حرًا ، ولو كنت كذلك كان عليك أن تقدّم مهرًا للنوار قوامه عشر من النوق معها سائقها" [3] يظهر لنا من خلال الأبيات الشعرية التي فضّل فيها الفرزدق الأعرابية على النوار وعرّض فيها بالنوار، وما كان من أمر النوار في شكايتها حالها لجرير، واستجابة جرير لذلك وهجائه للفرزدق يظهر لنا أثر الأفعال الكلامية في المخاطَب، وردّ فعله الذي كان تجاه المتكلم، وعلى المتكلم أن يعرف طبقات المستمعين، أو المخاطَبين، فيختار الألفاظ المناسبة لكل طبقة أو فئة من الناس، يقول الجاحظ: " لا يُكلَّم سيدُ الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة "[4]، ويتابع ابن قتيبة الجاحظَ في أن على المتكلم أو الكاتب ألّا " يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام " [5]؛ ولذلك عيب على علي بن الجهم لمّا مدح الخليفة بكلام كان جوّ الصحراء والبادية يفرض عليه التكلم به، وكانت معانيه لا تلائم جوّ الحضارة التي عاش فيها الخليفة في بغداد ، عابوا عليه ذلك ؛ لأنهم عاشوا في جوّ لا تلائمه المعاني الصحراوية وحياة البداوة ، فما كان من أمر الخليفة إلّا أن قال لهم اتركوه كي يعتاد حياة التمدّن، ونراه فعلًا قد أثّرت في طباعه وأسلوبه حياة الترف و النعيم، فبدّل معانيه قال[6] في أول مدحه للخليفة :

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ لِلْوِدِّ وَكَالتِّيْسِ فِي قِرَاعِ الْخُطُوبِ

ولما تغيّر نمط حياته نراه يمدح الخليفة بقصيدة ، مطلعها[7]:

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْـرِ جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي
فَتًى تُسْعَدُ الْأَبْصَارُ فِي حُسْنِ وَجْهِهِ كَمَا تُسْعَـدُ الْأَيْدِي بِنَـائِـلِهِ الْـغَـمْـرِ

(1) شرح نقائض جرير والفرزدق . ألفه ورواه : أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى شرحه. د. محمد التونجي: 531/2، 533، 538.
(2) شرح نقائض جرير والفرزدق . ألفه ورواه : أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى شرحه. د. محمد التونجي: 531/2.
(3) البيان والتبين :92/1.
(4) أدب الكاتب : 24.
(5) أدب الكاتب : 24
(6) ديوان علي بن الجهم :78.
(7) ديوان علي بن الجهم :253– 255.

يتضح لنا من قصة علي بن الجهم في وصفه الخليفة بالكلب وفائًا، وما كان من أمر الخليفة بالصفح عنه ، وتركه يعيش في الترف والتحضر ويرفل بحياة البذخ والرياش، ثم تبع ذلك تبدل معانيه وألفاظه، كلّ هذا وما سبق يصور لنا الأفعال الكلامية وتداول الخطاب أخذًا وردًّ وفهمًا لمقاصد المتكلم .

المبحث الخامس/ أثر الخلفية الثقافية في تحليل الخطاب

ذكرت في ما مضى[1] أنه لابدّ من اتفاق بين المتكلم والمخاطَب على دلالات الألفاظ لكي تتم عملية التواصل والتداول بينهما، وهنا أودّ أن أبيّن أنه ينبغي الارتكاز من قبل طرفي التواصل وهما المتكلم والمخاطَب على خلفية ثقافية أو معرفية، أي لابدّ من وجود ثقافة مشتركة تجمع بينهما، فتلقي بظلالها على فهم النصّ الذي يلقيه المتحدث، ويستمع إليه المخاطَب، ولكي تؤدي العملية التداولية غرضها بنجاح ، فأنها تقتضي " استعدادًا مشتركًا بينهما، والاستعداد ليس تهيّؤًا نفسيًا فحسب، بل كلّ ما يحمله المتلقي من ذخيرة معرفية وفنية يتلقى بها الأقوال ... وهذه الثقافة والمعرفة ... هي جزء من الخلفية المشتركة بين المبدع والمتلقي "[2] .

ومن بين الخلفية الثقافية التي يفاد منها في تحليل الخطاب وبيان دلالة النصّ عقيدةُ المتكلم أو المخاطَب، ذلك أنه من بين المعطيات التي تشتمل عليها التداولية : " معتقدات المتكلم، ومقاصده، وشخصيته، وتكوينه الثقافيّ، ومن يشارك في الحدث اللغويّ، والوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة فضلًا عن المعرفة المشتركة بين المتخاطبين وأثر النصّ الكلاميّ فيها "[3].

يتضح لنا من هذا النصّ أن لعقيدة المتكلم أو المخاطَب أثرًا في تحليل النصّ الخطابيّ، والوقوف على مضمونه ، من ذلك ما رآه الطبريّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [4] أن الاستهزاء هنا بمعنى التوبيخ واللوم [5]. و"يبدو أن الذي دفع الطبريّ إلى هذه الدلالة التي لم يذكرها أهل اللغة في مؤلفاتهم هو أن الاستهزاء لا ينفكّ عن الجهل "[6] ويستحيل على الله تعالى إسناد الجهل إليه[7]، وذلك لقوله تعالى :﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [8] .

نرى أثر العقيدة عند الطبريّ في حمله دلالة (يستهزئ) على التوبيخ واللوم، لا على السخرية المرتبطة بالجهل .

ومن الخلفية المعرفية والثقافية التي تساعد المخاطَب على تفسير النصّ، والوقوف على مراد المتحدث هو معرفته بلغات الأمة التي ينتمي إليها النصّ المراد تحليل مضمونه، من ذلك ما حمل الفرّاء على القول إن (لاترجون) بمعنى لا تخافون ، ذلك أن الرجاء لا يكون خوفًا إلا ومعه جحدٌ[9] رأى ذلك الفرّاء في قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾ [10]. والمعنى عنده : " لا تخافون لله عظمةً "[11] ، وعزا هذا المعنى إلى لغة الحجاز ، قال : " وهي لغة حجازية "[12] .،

---

(1) ينظر ص :15، 18من البحث .
(2) المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنيّ : 43.
(3) التداولية في الفكر النقديّ : 19، وينظر البحث اللسانيّ والسيميائيّ : 301– 303.
(4) سورة البقرة : 15.
(5) ينظر جامع البيان : 301/1.
(6) دلالة الفعل على معنى فعلٍ آخر في القرآن الكريم بين المفسرين واللغويين (أطروحة دكتوراه): 134.
(7) ينظر التفسير الكبير :309/2.
(8) سورة البقرة :67.
(9) ينظر معاني القرآن : 286/1.
(10) سورة نوح : 13.
(11) معاني القرآن : 286/1.
(12) معاني القرآن : 286/1.

وذكر الفرّاء أن بعض المفسرين حمل قوله تعالى :﴿ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [1] على معنى تخافون [2]وهي عند الفرّاء لا تكون كذلك إلّا مع النفي (الجحد) مستدلًا بلغة الحجاز كما ذكرت فإذن كان لمعرفة المتلقي ـ وهو الفرّاء ـ بلغة الحجاز أثرها في تحليل الخطاب، وذهابه إلى المعنى الذي ذكره، وللرواية أثرُ في تحليل النصّ وبيان فحواه، من ذلك مارآه الطبريّ في تفسير قوله تعالى :﴿ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ [3]، إذ فسَّر الهَجْر بمعنى : إكراههنّ على الجماع وربطهنّ، من هَجَر البعيرَ : إذا شدّه ووثّقه بالهِجار : وهو حبل يربط به حَقْوا البعير ورسغُه[4]، وقد استدلّ الطبريّ على هذا المعنى بقول امرئ القيس[3] :

رَأَتْ هَلَكًا بِنِجَافِ الْغَبِيطِ فَكَادَتْ تَجُدُّ لِذَاكَ الْهِجَارَا

واستدلّ أيضًا برواية مفادها : أن أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوّام كانت تخرج من دارها حتى عوتب الزبير على ذلك، فأمسك بها وبضرْتها، وربط شعر الواحدة بشعر الأخرى، وضربهما ضربًا مبرحًا هذه الرواية التأريخية جعلت الطبريّ يستلهمها ويرى أن " الربط والعقد مع احتمال اللفظ مع فعل الزبير فأقدم على هذا التأويل [وتحليل الخطاب] لذلك "[4] إذن رأينا أثر الخلفية الثقافية التأريخية هنا في تحليل الخطاب القرآنيّ، ولولا هذا البعد الثقافيّ الذي يمتلكه الطبريّ لما فسّر الهَجْر بمعنى الربط، لا تحويل وجه الزوج عن زوجته في الفراش[5] ويظهر أثر الثقافة والمعرفة التأريخية واضحًا أيضًا في تفسير ابن أبي حاتم لقوله تعالى:﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ [6]، إذ فسَّر (يُفرَق) بمعنى: يُكتَب[5] ، مستلهمًا رواية عكرمة (ت105هـ) أن الحاجّ ببيت الله في ليلة القدر يُكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، فلا يُغادر أحدٌ من مَن كُتب اسمه، روى ذلك عكرمة وقرأ : ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ ، فالمعنى عند ابن أبي حاتم بحسب هذه الرواية : يُكتب، لا يُبيَّن [9].

ولا يقف الأمر في استلهام الثقافة التأريخية والحوادث التي مضت في بيان دلالات المفردات أو النصوص عند المفسرين فحسب، بل نجد كذلك أصحاب المعجمات يعطون معاني جديدة للمفردات على وفق ما تمليه عليهم الحوادث والثقافة التأريخية الإسلامية، من ذلك ما نجده عند ابن منظور (ت 711هـ) الذي شرح معنى (اصطبِرْ) بـ(اقتصّ) ، ذلك أن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ضرب عمار بن ياسر (رضي الله عنه) على يده، فلما عوتب عثمان على ذلك مدّ يدَه لعمار ، وقال له : يا عمار اصطبِرْ ، أي : اقتصَّ[10].

(13) سورة النساء : 104.
(14) ينظر معاني القرآن :286/1.
(1) سورة النساء 34.
(4) ينظر جامع البيان : 307/8، 308.
(5) ديوان امرئ القيس : 206.
(6) دلالة الفعل على معنى فعل آخر بين المفسرين واللغويين (أطروحة دكتوراه) :114، وينظر أحكام القرآن لابن العربي : 533/1، والجامع لأحكام القرآن :172/5، واللباب في علوم الكتاب :364/6.
(7) ينظر : تفسير ابن أبي حاتم :3287/10.
(8) سورة الدخان :4
(9) ينظر تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : 69.
(10) ينظر : تفسير ابن أبي حاتم :3287/10.

وقد يستلهم المخاطَب الظواهر السلوكية والاجتماعية لأفراد المجتمع، فيبني عليها تحليل ما يقوله المتكلم ذلك أنه " يمكن أن يعتمد التحليل بشكل كبير على معرفة الأعراف الاجتماعية ـ الثقافية باعتبارها اساسًا للاستدلال "[1]. من ذلك تفسير الفرّاء لقوله تعالى:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [1] قال : " (وقَرْنَ في بيوتكنّ) من الوقار "[3]، وقال في حديثه عن التبرّج : " كانت المرأة إذ ذاك تلبس الدِّرْع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين . ويقال : كانت تلبس الثياب تبلغ المال لا تواري جسدها، فأُمِرْنَ ألّا يفعَلْنَ مثل ذلك "[4]. فإذن نرى الفرّاء يذهب إلى أن (وقَرْنَ) : بمعنى الوقار، لا بمعنى الاستقرار مستدلًا في تفسيره هذا بما كانت نساء الجاهلية تمارسه من سلوك في لبس الملابس غير المحتشمة ، فأمرْنَ لذلك بعدم التبرج، فالظاهرة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك دعت الفرّاء إلى القول بأن (وقَرْنَ): هو الأمر بالتزام الوقار في الملبس، لا التهتّك به، وعنده أن (وقرْنَ) لا يراد بها المكوث في البيت والاستقرار به ، بل يراد به الأمر بعدم ارتداء الملابس التي تذهب بوقار المرأة وكبريائها ومن السلوك الاجتماعيّ والعادات المقيتة ما يكون داعيًا لأن يؤمر المخاطَب بترك تلك التقاليد التي تنمي روح العداء واستمرار الدم بين أفراد المجتمع، وعند تطبيق ما أُمِر به المخاطَب تتحقق العملية التواصلية من ذلك ما روِي أن حيَّيْنِ من أحياء العرب اقتتلا، وكان أحدهما ذا طَوْل على الآخر، فقال الذي له طَوْل نقتل بالعبد منا الحرَّ منهم، ونقتل الرجل منهم بالأنثى منا، ونقتل بالرجل الرجلين منهم، وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراحات أولئك . فلما جاء الإسلام أنزل[2] الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [3] نبذًا لسلوك هؤلاء في أخذ الصاع صاعين ، وقوله تعالى : (فمن عفي له من أخيه شيءٌ) أراد بالأخ هنا المقتول ؛ إذ جعله اخًا للقاتل، أو أراد به القاتل ؛ إذ جعله اخًا للمقتول من باب أخوة الإسلام التي لم يقطعها القتل[4] ، فسمّى كلًّا من المقتول أو القاتل أخًا لقبيله؛ لإحكام أواصر المودة التي يريدها الإسلام ؛ وليلغي الثأر المبالغ فيه ؛ لأنه يهدم المجتمع ، ويجعل نار الحرب مستعرة . فإذن لفظ (أخيه) يحتمل الدلالتين ، ولا تفضل دلالة منهما الدلالة الأخرى، أي : يراد بهما الطرفان : القاتل والمقتول؛ لتحقق الغاية من الرسالة الإبلاغية، وهي إقامة حدود الله تعالى ، والابتعاد عن الاقتتال . ولفظ(عُفِي) استعملت هنا دون استعمال كلمة (تُرِك)؛ لأن الأولى متداولة في باب الجنايات . يقول الزمخشريّ : " والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة في الكتاب والسّنة استعمال الناس، فلا يُعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها"[5]. نرى أن عملية التواصل قد تحققت باستعمال الألفاظ المتداولة بين الناس التي تختص بجانب معين من جوانب حياتهم كلفظ (عُفِي) ؛ إذ لكل جانب في الحياة والسلوك ما يختص به من ألفاظ لا يمكن استعمالها في جانب آخر ؛ لأن استعمال ألفاظ في غير جانبها الحياتيّ والسلوكيّ والاجتماعيّ لا يحقق التواصل بين المُلقي والمتلقي .إذن يتضح لنا من

(1) سورة الأحزاب :33.
(2) ينظر مجمع البيان :264/1– 265.
(3) سورة البقرة : 178.
(4) ينظر فتح القدير : 179/1.
(5) الكشاف : 220/1.

ما سبق أن المتلقي يمكن أن يستفيد من ثقافته واطلاعه على حيثيات النصّ في فهم النصّ والوقوف على ما يريده المتكلم، كما أن المتكلم يستحضر الظواهر الاجتماعية والسلوكية، والموروث التقليدي للمجتمع عند ذاك يلقي نصّه للمخاطَب الذي هو على علم بذلك أيضًا فيفسّر النصّ في ضوء هذا الركام المعرفيّ .

الخاتمة

بعد هذه الجولة في درس لسانيّ : (التداولية) وتأصيل جهود علماء العربية فيه نحوًا ودلالةً ، أستطيع أن أسجل ما توصلت إليه من نتائج :

1ــ ظهر من خلال البحث أن علماء العربية على علم بالتداولية فكرةً أو مضمونًا، وذلك من خلال ما وقفت عليه من نصوص كثيرة وردت فيها ألفاظ أو عبارات تشير إلى اهتمامهم بالعملية التداولية الجارية بين المتكلم والمخاطَب، ومن هذه الألفاظ : القصدية، النفعية، المخاطَب، المتكلم، استعمال الناس، متداولة، المحدَّث، الدَّوْر، اتصال مخاطباتهم ، إنزال المخاطَب منزلة المتكلم في معرفة الخبر...

2ــ تتحقق التداولية أو التواصلية بين طرفيّ الكلام وهما المتكلم والمخاطَب عند استعمال لفظ في حقله المخصص له أي : في الاستعمال الذي درج عليه ابناء اللغة وذلك مثل لفظ (عُفِي) الذي لا يستعمل إلا في الجنايات، فإذا استبدل بلفظ آخر غير متعارف على استعماله في حقل الجنايات فلا تتحقق العملية التداولية التواصلية .

3ــ يشترك كلّ من المتكلم والمخاطَب في معرفة ظروف النصّ وما يتصل به من ظواهر اجتماعية أو سلوكية عندئذٍ تتحقق العملية التواصلية في تحليل الخطاب الذي يحلله المخاطَب عندما يلقيه المتكلم .

4ــ للاستعمال وكثرته دور واضح في اختزال شيء من النصّ أو التركيب، ولا تأثير لهذا الاختزال أو الاجتزاء في فهم السامع لمضمون النصّ أو التركيب، ذلك أن كلًا من المتحدث والمحدّثَ على علم بهذا المختزل، ولا يمكن للمتكلم أن يحذف شيئًا من كلامه ما لم يكن السامع قد خَبَر هذا الكلام وتعارف عليه.

5ــ للسياق دور واضح في بيان المعنى المقصود إذا كان للمفردة أكثر من معنى، ذلك أن المفردة المتعددة المعاني تحمل كلّ طاقاتها التعبيرية الدلالية، ولا يضيق دائرتها الواسعة ويحصرها في معنًى مراد إلّا السياق ؛ لأنها ـ وهي خارجة عن السياق ـ عائمة المعنى .

6ــ ينبغي أن يكون المتحدث والمحدَّث على علم بدلالات الألفاظ أو التراكيب، فإن لم يكن المحدَّث على بيّنة من معرفة معاني الألفاظ أو التراكيب فلا تتحقق الرسالة الإبلاغية التي يروم المتكلم إيصالها إلى السامع.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1ـ أحكام القرآن لابن العربيّ/ محمد بن عبد الله المعروف بابن العربيّ (ت 543هـ) / راجع أصوله وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد عبد القادر عطا / ط3/ منشورات محمد علي بيضون / دار الكتب العلمية/ بيروت ـ لبنان 2003م ـ 1424هـ .

2ـ أدب الكاتب /عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ(ت 276هـ) / مراجعة د. درويش الجوَيديّ د.ط /صيدا ـ بيروت/ 1425هـ ـ 2004م.

3ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب / أبو حيان الأندلسيّ (ت745هـ) تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى النماس / ط1/ مطبعة المدنيّ / القاهرة /1408هـ ـ1987م.

4ـ أسباب النزول / علي بن أحمد الواحديّ النيسابوريّ (ت 486هـ) / تحقيق مجد فتح السَّيِّد وخيري سعيد / د.ط/ المكتبة التوفيقية / القاهرة ـ مصر / د.ت.

5ـ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية / عبد الهادي بن ظافر الشهري/ ط1/ دار الكتاب الجديد المتحدة / بيروت /2004م.

6ـ الأشباه والنظائر في النحو/ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ (ت 911هـ) وضع حواشيه:غريد الشيخ /ط1/منشورات محمد علي بيضون / دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان /1422هـ ـ 2001م.

7ـ الأصول في النحو / محمد بن سهل بن السراج (ت316هـ) /تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتليّ / ط4/ مؤسسة الرسالة / بيروت ـ لبنان / 1420هـ ـ 1999م.

8ـ أعلام الفكر الفلسفي المعاصر / فؤاد كامل / ط1/ دار الجيل ـ بيروت /1413هـ ـ 1993م.

9ـ الأفق التداوليّ ـ نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية / الدكتور إدريس مقبول / ط1/ عالم الكتب الحديث / الأردن / 2011م.

10ـ البحث اللسانيّ والسيميائيّ / مجموعة باحثين/ ندوة كلية الأداب والعلوم الإنسانية / الرباط / جامعة محمد الخامس/1981م.

11ـ البحر المحيط في التفسير / محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسيّ / بعناية صدق محمد جميل / د.ط/ دار الفكر / بيروت ـ لبنان /1412هـ ـ 1992م.

12ـ البرهان في علوم القرآن / بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشيّ (ت 794هـ) / تحقيق مصطفى عبد القادر عطا / ط1/ دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان / 1408هـ ـ 1988م.

13ـ البيان والتبيين / عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) / تحقيق عبد السلام محمد هارون / د.ط / دار الجيل / بيروت / د.ت.

14ـ تأويل مشكل القرآن / أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ / علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه ابراهيم شمس الدين / ط2/ دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان /2007م ـ 1428هـ.

15ـ التداولية / جورج يول / ترجمة الدكتور قصي العتّابيّ /ط1/ الدار العربية للعلوم ناشرون / دار الأمان / الرباط /1431هـ ـ 2010م.

16ـ التداولية عند علماء العرب ـ دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللسانيّ العربيّ / الدكتور مسعود صحراوي /ط1/دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت /2005م.

17ـ تفسير القرآن العظيم / لابن أبي حاتم أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازيّ ابن أبي حاتم (ت 327هـ) تحقيق أسعد محمد الطيب / ط3/ مكتبة نزار مصطفى الباز المملكة العربية السعودية/1419هـ.

18ـ التفسير الكبير/ الفخر الرازيّ (ت 606هـ) ط1/ مكتب التحقيق دار إحياء التراث العربيّ / بيروت ـ لبنان / 2008م ـ 1429هـ .

19ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس/ جمعه مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (ت817هـ)/ دار الكتب العلمية/ لبنان /د.ت .

20ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرمانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ في الدراسات القرآنية والنقد الأدبيّ / تحقيق محمد خلف الله أحمد و الدكتور محمد زغلول سلام / ط5/
دار المعارف / القاهرة / د. ت.
21ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن / محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبريّ (ت 310هـ) / تحقيق أحمد محمد شاكر/ ط1/مؤسسة الرسالة/ 1420هـ ـ 2000م.
22ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبيّ) / محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبيّ (ت671هـ / تحقيق أحمد البردونيّ وإبراهيم أطفيش / ط2/ دار الكتب المصرية ـ القاهرة/ 1384هـ ـ 1964م.
23ـ دلائل الإعجاز / عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانيّ (ت 471هـ) / قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر / ط3/ مطبعة المدنيّ / المؤسسة السعودية بمصر/ 1413هـ ـ 1992م.
24ـ ديوان امرئ القيس /تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم /ط5/ دار المعارف / القاهرة / د.ت .
25ـ ديوان الحماسة : أبو تمام حبيب بن أوس الطائيّ (ت 231هـ) برواية أبي منصور موهوب ابن أحمد الجواليقيّ (ت 540هـ) / تحقيق الدكتور عبد المنعم أحمد صالح / الجمهورية العراقية / دار الرشيد للنشر / 1980م .
26ـ ديوان شعر ذي الرُّمة / راجعه وقدّم له وأتم شروحه وتعليقاته زهير فتح الله / ط1/ دار صادر ـ بيروت / 1995م.
27ـ ديوان علي بن الجهم / خليل مردم بك / ط3/ دار صادر / بيروت ـ لبنان / 1996م.
28ـ ديوان النابغة/ تحقيق فوزي عطوي / الشركة اللبنانية للكتاب / بيروت/ لبنان / 1969م.
29ـ الرسالة / الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ (ت204هـ) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر/ط1/مطبعة البابي الحلبيّ / مصر / 1358هـ ـ 1940م.
30ـ شرح المفصل / موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت 643هـ) / قدم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب / ط1/دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان /1422هـ ـ 2001م.
31ـ شرح نقائض جرير والفرزدق . ألّفه ورواه أبو عبيدة مَعْرَ بن المثنى (ت 211هـ) شرحه الدكتور محمد التونجيّ د.ط/ دار الجيل / بيروت / 1422هـ ـ 2002م.
32ـ الصورة النفسية في القرآن الكريم / دراسة أدبية / الدكتور محمود سليم محمد هياجنة / ط1/عالم الكتب الحديث ـ جدارا للكتاب العالميّ/ عمان ـ الأردن /1428هـ ـ 2008م.
33ـ العصر الجاهليّ / الدكتور شوقي ضيف / ط8/ دار المعارف / القاهرة /د.ت.
34ـ علم الدلالة / الدكتور أحمد مختار عمر /ط1/ مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع / الكويت / 1402هـ ـ 1982م.
35ـ علم الدلالة التطبيقي في التراث العربيّ / الأستاذ الدكتور هادي نهر /ط2/ عالم الكتب
الحديث / إربد ـ الأردن/ 1432هـ ـ 2011م.
36ـ فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدّراية من علم التفسير / محمد بن علي بن محمد الشوكانيّ / د.ط/ دار الأرقم بن أبي الأرقم / بيروت ـ لبنان / د.ت.
37ـ الفلسفة البراجماتية أصولها ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسّسها تشارس ساندرس بيرس / الدكتور علي عبد الهادي المهرج /ط1/ دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان /2008م .
38ـ الفلسفة والبلاغة / الدكتور عمارة ناصر /ط1/منشورات الاختلاف /الجزائر /2009م.

39ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير / زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي ابن زين العابدين الحداديّ المناويّ القاهريّ (ت 1031هـ) / ط1/ المكتبة التجارية الكبرى /مصر / 1356هـ.
40ـ كتاب الأضداد / محمد بن القاسم الأنباريّ (328هـ) / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / د.ط / المكتبة العصرية / صيدا ـ بيروت /2011م ـ 1432هـ.
41ـ كتاب سيبويه / عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180هـ) / تحقيق عبد السلام محمد هارون / ط3/مطبعة المدنيّ / القاهرة / 1408هـ ـ 1988م.
42ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / محمود بن عم الزمخشريّ (ت538هـ) وبهوامشه أربعة كتب / رتّبه وضبطه وصحّحه محمد عبد السلام شاهين /ط3/ دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان /2003م ـ 1424هـ .
43ـ اللامات / لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجيّ (ت 337هـ) / تحقيق الدكتور مازن المبارك / ط2/ دار صادر ـ بيروت /1412هـ ـ 1992م.
44ـ اللباب في علوم الكتاب / عمر بن علي بن عادل (ت 775هـ) / تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض/ ط1/ دار الكتب العلمية / بيروت/ 1419هـ ـ 1998م.
45ـ لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور الأفريقيّ المصريّ (ت 711هـ) مراجعة الدكتور يوسف البقاعيّ وإبراهيم شمس الدين ونضال علي / ط1/مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات /بيروت / 1426هـ ـ 2005م.
46ـ المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنيّ / تسعديت فواري /د.ط/ اتحادالكتاب العرب / دمشق/2008م.
47ـ مجمع الأمثال / أحمد بن محمد الميدانيّ / تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم /د.ط /المكتبة العصرية / صيدا ـ بيروت 2009م ـ 1430هـ .
48ـ مجمع البيان في تفسير القرآن / أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ (ت548هـ) / تحقيق هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ /د.ط/ دار إحياء التراث العربيّ / بيروت ـ لبنان /1379ق ـ 1339ش.
49ـ معاني القرآن / يحيى بن زياد الفرّاء (ت 207هـ) تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، د.ط/ دار السرور / د.ت.
50ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / وضعه محمد فؤاد عبد الباقي / دار الجيل /بيروت /1408هـ ـ 1988م .
51ـ معرفة اللغة / جورج يول / ترجمة الدكتور قصيّ العتابيّ /ط1/الدار العربية للعلوم ناشرون / دار الأمان / الرباط/1431هـ ـ 2010م.
52ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب / أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاريّ (ت 716هـ) خرّج آياته وعلّق عليه أبو عبد الله علي عاشور الجنوبيّ /ط1/دار إحياء التراث العربيّ/بيروت ـ لبنان /1421هـ ـ 2001م.
53ـ المفردات في غريب القرآن /أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانيّ (ت502هـ) تحقيق محمد خليل عيتاني /ط3/ دار المعرفة / بيروت ـ لبنان /1422هـ ـ 2001م.
54ـ المقتضب / صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285هـ) / تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة/د.ط/الجمهورية العربية المتحدة /لجنة إحياء التراث الإسلاميّ / د.ت.

55ـ مقدمة في أصول التفسير/ ابن تيمية أحمد عبد الحليم (ت 728هـ) / تحقيق الدكتور عدنان زرزور /ط1/ دار القرآن الكريم / الكويت /1391هـ ـ 1971م.
56ـ مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة / الدكتور نعمة رحيم العزاويّ /د.ط/ مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ/1421هـ ـ2001م.
57ـ نحو المعاني/ الدكتور عبد الستار الجواريّ /د.ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت /2006م.
58ـ نظرية اللغة الأدبية / خوسيه ماريا ايفانوكس / ترجمة حامد أبو أحمد / دار غريب / القاهرة / 1991م.
59ـ النكت في تفسير كتاب سيبويه/يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمريّ (ت 476هـ) / تحقيق زهير عبد المحسن سلطان/ط1/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / الكويت /1407هـ ـ 1987م.
60ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع / جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ (ت911هـ) / تحقيق أحمد شمس الدين /ط2/ دار الكتب العلمية / بيروت ـ لبنان / 2006م ـ 1427هـ .
61ـ وجوه القرآن /إسماعيل بن أحمد النيسابوريّ (ت 431هـ) / تحقيق الدكتور نجف عرشيّ / مراجعة ناصر النجفيّ / ط1/ مشهد/ مجمع البحوث الإسلامية /1422هـ ـ ق /1380ش.
62ـ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم / هارون بن موسى القارئ (ت نحو 170 هـ) / تحقيق الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن / ط1/دار البشير ـ عمّان / 2002م.

الرسائل الجامعية

1ـ البحث الدلاليّ في كتب المعاني القرآن / عمار أمين الدَّدَوَ / رسالة ماجستير / كلية التربية ـ الجامعة المستنصرية/1995م.
2ـ التداولية في الفكر النقديّ / كاظم جاسم منصور الغّراويّ / أطروحة دكتوراه / جامعة بابل /1433هـ ـ 2012م.
3ـ دلالة الفعل على معنى فعل آخر في القرآن الكريم بين المفسرين واللغويين/ حسين علي هادي المحنا/ (أطروحة دكتوراه) 1435هـ ـ 2014م.
4ـ السياق والتوجيه النحويّ في القرآن الكريم / دراسة دلالية نحوية / تحسين قادر محمد / رسالة ماجستير / الجامعة المستنصرية /1420هـ ـ 1999م.

الدوريات

1ـ التداولية البعد الثالث في سيميو طيقاموريس / الدكتور عيد بليغ / مجلة فصول / ع66/ القاهرة: 2005م.
2ـ الجذور الفلسفية والنظرية اللّسانية ، الإشارة / بسام بركة / مجلة الفكر العربيّ المعاصر / مركز الإنماء القوميّ / بيروت / ع30ـ 31/ 1984م.
3ـ النظرية القصدية في المعنى عند جرايس / الدكتور صلاح إسماعيل / حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية/ مجلس البحث العلميّ / الحولية 2005/25م.

شبكة المعلومات

1ـ التداولية منهج لسانيّ واستراتيجية لتحليل الخطاب / سعد بولنوار.
2ـ التداولية وتحليل الخطاب الأدبيّ / راضية خفيف بو بكري ـ الجزائر .
3ـ التداولية ومنزلتها في النقد الحديث / الدكتور رخرور إمحمد.